الفصل الثاني

إرهاب الشرق الأوسط
والنظام الأيديولوچى الأمريكى(*)

(*) كتب هذا الفصل عام ١٩٨٦م.

obeikandl.com

obeikandl.com

فى السابع من أكتوبر عام ١٩٨٥م، التقى الرئيس ريجان فى واشنطن مع رئيس الوزراء الإسرائيلى شمعون بيريز الذى أخبره بأن إسرائيل مستعدة لاتخاذ «خطوات مقدامة» فى الشرق الأوسط ومد «يد السلام» إلى الأردن.

وفى صحيفة التايمز علق ديفيد شيلر قائلاً إن «زيارة السيد بيريز تأتى فى وقت تشهد فيه العلاقات الأمريكية الإسرائيلية انسجامًا غير عادى»، مستشهداً فى ذلك بوصف أحد مسئولى وزارة الخارجية لعلاقات أمريكا بإسرائيل بأنها «حميمة ومتينة على نحو رائع». تم استقبال السيد بيريز بكل حفاوة باعتباره رجل سلام، وقد أشيد بتمسكه الجاد «بتحمل كلفة السلام عن تحمل ثمن الحرب». وصرح الرئيس بأنه والسيد بيريز قد ناقشا «شر الإرهاب» الذى أودى بحياة كثير من الضحايا الإسرائيليين والأمريكيين والعرب، وجلب مأساة على الكثير من الآخرين، وأردف قائلاً «لقد اتفقنا على ألا يوهن الإرهاب من جهودنا لتحقيق السلام فى الشرق الأوسط».

قد يستلزم الأمر قرائح روائى مثل جوناثان سويفت لوصف هذا الحوار الدائر بين اثنين من أبرز القادة الإرهابيين فى العالم. ويستبعد مفهوم «السلام» عندهما، إحدى الجماعتين اللتين تدعى كلٌ منهما الحق فى تقرير المصير فى فلسطين القديمة، وهى جماعة السكان الأصليين. فقد صرح بيريز فى زيارة له إلى المستوطنات الإسرائيلية فى عام ١٩٨٥م أن وادى الأردن «جزء لا يتجزأ من دولة إسرائيل» بموقف ثابت لا يحيد عنه لأن **«الماضى لا يمكن تغييره، والتوارة هى الوثيقة الحاسمة فى تقرير مصير أرضنا»**، وصرح كذلك بأن وجود دولة فلسطينية **«يهدد الوجود الفعلى لإسرائيل»**. فمفهومه للدولة اليهودية ـ الذى أشيد به كثيراً فى الولايات المتحدة لاعتداله ـ لا يمثل تهديداً فحسب، بل إنه يلغى الوجود للشعب الفلسطينى. غير أن هذه النتيجة اعتُبرت قليلة الأهمية، وفى أسوأ الأحوال شائبة ثانوية فى عالم غير مثالى.

لم يتقدم بيريز أو أى قائد إسرائيلى آخر خطوة واحدة إلى الآن منذ الموقف الذى

اتخذه الرئيس الإسرائيلى الحالى حاييم هيرتزوج فى عام ١٩٧٢م؛ ذلك أن الفلسطينيين لا يمكن مطلقًا أن يصبحوا **«شركاء بأى شكل فى أرض قدسها شعبنا لآلاف السنين»**، وبرغم ذلك تفضل الحمائم استبعاد مناطق الضفة الغربية التى تعج بالسكان العرب من الدولة اليهودية لتجنب ما اصطلحوا على تسميته بتعبير لطيف «المشكلة الديموجرافية». واستمر الجميع فى الاقتناع برأى شلومو جازيت؛ ذلك أن سياسات «القضاء على كافة مبادرات» العمل السياسى أو الديمقراطى أو المفاوضات كانت «قصة نجاح»، ويجب الاستمرار فيها . وظل موقف إسرائيل، مع التأييد الأمريكى له، كموقف رئيس الوزراء (وزير الدفاع الحالى) إسحاق رابين. **ففى يناير عام ١٩٧٦م عندما أيدت منظمة التحرير الفلسطينية والدول العربية مشروع قرار لمجلس الأمن يدعو إلى تسوية سلمية لإقامة دولتين، رفضت إسرائيل إجراء أى مفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية حتى وإن اعترفت المنظمة بإسرائيل ونبذت الإرهاب، وأعلنت أنها لن تدخل فى «مفاوضات سياسية مع الفلسطينيين» أو منظمة التحرير الفلسطينية. ولم يكن لدى بيريز أو ريجان مجرد الرغبة فى النظر فى المقترحات الواضحة التى قدمتها منظمة التحرير الفلسطينية ـ التى يعرف كلاهما بأنها تلقى تأييدًا واسعًا بين الفلسطينيين ـ ومشروعية كمشروعية المنظمة الصهيونية فى عام ١٩٤٧م ـ لمفاوضات تفضى إلى اعتراف مشترك نحو تسوية لإقامة دولتين بما يتفق مع الإجماع الدولى الواسع الذى أعاقته الولايات المتحدة وإسرائيل لسنوات كثيرة عند كل منعطف.**

تقدم هذه الحقائق السياسية المهمة، الإطار اللازم لأى مناقشة تخص «الإرهاب» الذى يشير، فى المصطلحات العنصرية للخطاب الأمريكى، إلى الأعمال الإرهابية التى قام بها العرب، دون أن يشير إلى تلك التى قام بها اليهود، مثلما يعنى «السلام» تسوية تحترم الحق فى تقرير المصير الوطنى لليهود دونما الفلسطينيين.

قدم بيريز إلى واشنطن ليتناقش حول موضوعات السلام والإرهاب مع شريكه فى الجريمة فور إرساله قاذفاته لمهاجمة تونس حيث قتلت عشرين تونسيًا وخمسة وخمسين فلسطينيًا، كما أفاد الصحفى الإسرائيلى أمنون كابيلوك من مسرح الأحداث. فالهدف لم يكن له دفاعات فقد كان عبارة عن «منتجع يضم عدة عشرات من المنازل والأكواخ لقضاء العطلات، تجاورها مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية التى كانت تتداخل معها بحيث يصعب من مكان قريب تمييزها من بينها» . واستخدمت أسلحة كانت أكثر تطورًا

من تلك التى استخدمت فى بيروت، وعلى ما يبدو فقد كانت «القنابل الذكية»، التى سحقت أهدافها وحولتها إلى رماد.

مزق القصف من كان بداخل المنازل إلى أشلاء. وقد عرضوا علىّ مجموعة من صور القتلى وقالوا لى: «يمكنك أن تأخذها» لكننى تركتها فى المكتب، فلا يوجد صحيفة فى العالم يمكنها أن تنشر صور إرهاب مثل تلك الصور. وأخبرت بأن صبيًا تونسيًا كان يبيع الساندوتشات بالقرب من المكاتب الإدارية قد مُزق إربًا. وتعرف والده على الجثة من خلال ندبة فى كاحله. وأخبرنى مرشدى بأن «بعض الجرحى الذين أخرجوا من تحت الأنقاض وكانوا على ما يبدو معافين وسالمين»، ما لبثوا أن انهاروا صحيًا بعد نصف ساعة جراء الكسور التى لحقت بهم ولقوا حتفهم. فعلى ما يبدو أن أعضاءهم الداخلية قد تعرضت لتلف شديد نجم عن قوة الانفجار.

وافقت تونس على استقبال الفلسطينيين بأمر من ريجان بعد أن رُحلوا من بيروت جراء عملية اجتياح مدعومة من الولايات المتحدة أسفرت عن ٢٠,٠٠٠ قتيل وتدمير جزء كبير من الدولة. وقد قام «أحد الشخصيات القيادية بالپنتاجون، وهو لواء مطلع على الجيش الإسرائيلى (قوات الدفاع الإسرائيلى) والجيوش الكثيرة الأخرى بالمنطقة» بإخبار المراسل العسكرى الإسرائيلى زائيف تشيف قائلاً «لقد استخدمتم مطرقة ضد ذبابة» «وقتلتم الكثير من المدنيين دون داع. لقد صُعقنا من موقفكم تجاه المدنيين اللبنانيين». وهو شعور تقاسمه جنود إسرائيليون ومسئولون كبار ممن فزعوا من وحشية الهجوم ومعاملة المدنيين والأسرى - وبرغم ذلك ازداد التأييد داخل إسرائيل للعدوان ولفريق بيجن وشارون فى تواز مع الأعمال الوحشية التى بلغت أعلى ذروة لها عقب القصف العنيف الذى تعرضت إليه بيروت فى أغسطس. التزم شمعون بيريز، رجل السلام والشخصية المبجلة فى الاشتراكية الدولية، الصمت إلى أن بدأت خسارة إسرائيل فى الصعود مع وقوع مذبحتى صبرا وشتيلا عقب انتهاء الحرب، ثم الخسارة التى سببتها المقاومة اللبنانية التى قوضت خطة إسرائيل لوضع «نظام جديد» فى لبنان، يجعل لإسرائيل السيطرة على مناطق كبيرة فى الجنوب، والبقية تسيطر عليها كتائب حلفاء إسرائيل، والنخب المختارة من المسلمين.

ليس هناك شك، يستنتج كاپيلوك، أن عرفات كان الهدف من وراء الهجوم على تونس. وفى مقر منظمة التحرير الفلسطينية إلى حيث اقتيد، يظهر عرفات فى صورة له واقفًا وسط الحطام يقول: **«لقد أرادوا قتلى بدلاً من التفاوض معى»**.

وأخبر كاپيلوك بأن «منظمة التحرير الفلسطينية ترغب فى إجراء مفاوضات» «غير أن إسرائيل ترفض إجراء أى مناقشة» ـ تقرير حقيقة واضح أعتم عليه بقوة فى الولايات المتحدة، أو رفض النظر فيه بوصفه غير ملائم، طبقا للنظام المرشد العنصرى.

ليس هناك أيضًا محض شك فى تواطؤ الولايات المتحدة فى الهجوم على تونس، بل إن الولايات المتحدة لم تحذر الضحايا ـ حلفاء أمريكا ـ بأن القتلة قد انطلقوا فى طريقهم. ويجب على المرء الذى يصدق الادعاء بأن الأسطول السادس ومنظومة المراقبة الشاملة فى المنطقة، كانوا عاجزين عن رصد الطائرات الإسرائيلية، التى أعيد تزويدها بالوقود خلال طيرانها فوق البحر المتوسط، أن يدعو الكونجرس إلى إجراء تحقيق عن العجز المطلق للجيش الأمريكى الذى يتركنا وحلفاءنا عرضة لهجوم الأعداء. وذكرت صحيفة لوس أنجيلوس تايمز أن «التقارير الإخبارية تنقل حاليًا عن مصادر حكومية تقول بأن الأسطول السادس الأمريكى كان بدون شك على دراية بالغارة الآتية، غير أنه قرر عدم إخبار المسئولين التونسيين». وقد ذكر مراسل صحيفة إيكونومست اللندنية فى الشرق الأوسط جود فرى جانسن، أن «ذلك التقرير الخطير جدًا لم يرد فى أكبر صحيفتين فى الساحل الشرقى، صحيفة نيويورك تايمز وصحيفة واشنطن پوست، ولا فى الصحف الأمريكية الأخرى، ولم يستخدم فى خدمات ما وراء البحار» لوكالة أسوشيتدپرس والصحافة الدولية المتحدة. وأضاف قائلاً بأن «التواطؤ السلبى للولايات المتحدة كان مؤكدًا بدون شك».

محمد المغربى، أحد ضحايا قصف تونس، ولد فى القدس عام ١٩٦٠م، واحتجز اثنتى عشرة مرة فى سن السادسة عشرة، ويعد واحدًا من الذين أدلوا بمعلومات لصحيفة صنداى تايمز اللندنية خلال التحقيق الذى أجرته حول عمليات التعذيب فى إسرائيل (١٩ يونيو ١٩٧٧م) والذى «تمكن من الفرار إلى الأردن بعد سنوات من تفاقم سوء معيشته تحت التدهور المستمر فى الأحوال نتيجة للاحتلال العسكرى». طبقًا لما ورد فى تعليق تذكارى كتبه له أصدقاء إسرائيليون يهود منعت الرقابة العسكرية الإسرائيلية ـ عدة مرات ـ من نشره فى الصحف العربية بالقدس الشرقية. وهذه الحقائق، بالطبع، قد تكون بلا معنى فى الولايات المتحدة؛ إذ أن الدراسة الدقيقة الاستثنائية التى أجرتها صحيفة صنداى تايمز قد أقصيت تمامًا فى الصحافة، وبرغم ذلك فقد أشير إليها فى صحيفة نيوريپابليك الليبرالية، رافقها دفاع صريح عن عمليات تعذيب العرب، تلك العمليات التى لم تفرز أى رد فعل عام.

أيدت الولايات المتحدة القصف الإسرائيلى لتونس باعتباره «رد فعل مشروع» على «هجمات إرهابية»، وقد أكد وزير الخارجية شولتز على هذا الرأى خلال مكالمة هاتفية أجراها مع وزير الخارجية الإسرائيلى إسحاق شامير، مخبرًا إياه بأن الرئيس وآخرين «يشعرون بتعاطف كبير مع العمل الإسرائيلى». تراجعت واشنطن عن هذا التأييد الواسع إثر رد فعل عالمى مناوئ، غير أنها امتنعت عن التصويت على إدانة مجلس الأمن لهذا «العمل العدوانى المسلح» فى «انتهاك سافر لميثاق الأمم المتحدة والقانون الدولى ومعايير السلوك» ـ بمفردها كالمعتاد.

يتبين المناخ الفكرى والثقافى فى الولايات المتحدة، بالإدانة المرة للامتناع عن التصويت بوصفه حالة أخرى للموقف «الموالى لمنظمة التحرير الفلسطينية» و«المعادى لإسرائيل» ورفض الضرب بقوة على ـ من تم انتقاؤهم بعناية من ـ الإرهابيين.

قد يجادل المرء فى أن القصف الإسرائيلى لا يقع تحت مسمى الإرهاب الدولى، لأنه يقع تحت مسمى جريمة العدوان الأكثر خطورة، كما أقر مجلس الأمن. أو قد يرى المرء أنه ليس من الإنصاف أن نطبق على إسرائيل تعريف «الإرهاب الدولى» الذى وضعه آخرون. وللرد على المأخذ الثانى ربما يجب علينا دراسة عقيدته كما صاغها السفير بنيامين نتنياهو فى أحد المؤتمرات الدولية المعنية بالإرهاب. فقد أوضح أن العامل الفارق فى الإرهاب هو «القتل المتعمد والمنهجى وتشويه [المدنيين] بقصد إثارة الخوف». **بوضوح، يقع الهجوم على تونس والأعمال الوحشية الإسرائيلية الأخرى التى استمرت لسنوات تحت هذا المفهوم.**

يأتى الهجوم على مقار منظمة التحرير الفلسطينية التى يرأسها عرفات بدعوى الثأر لمقتل ثلاثة إسرائيليين فى لارناكا بقبرص على يد معتدين قبض عليهم وواجهوا محاكمة لجريمتهم. ويشكك «خبراء ديبلوماسيون غربيون معنيون بمنظمة التحرير الفلسطينية» فى أن عرفات كان على علم بالمهمة المدبرة. «وأدلى الإسرائيليون أيضًا برأيهم المتأصل، ذلك أن عرفات كان متورطًا». وفى الولايات المتحدة لم يتأثر المدافعون عن إرهاب إسرائيل ممن أكدوا لنا أن «الغارة التى شنتها إسرائيل على تونس استهدفت بدقة الأشخاص المسئولين عن الأنشطة الإرهابية»، موضحين أنه مهما كانت الحقائق فإن «المسئولية الأخلاقية الكبرى عن الأعمال الوحشية... تقع جميعها على كاهل عرفات»، حيث «إنه كان ولا يزال الأب المؤسس للعنف الفلسطينى المعاصر».

وفى خطاب له أمام جماعة اللوبى الإسرائيلى «أيباك - AIPAC»، صرح المدعى العام إيدوين ميس بأن الولايات المتحدة تحمل عرفات بشكل عام «المسئولية عن أعمال الإرهاب الدولى»، حقائق تبدو غير مقبولة. من ثم فإن أى عمل «ضد منظمة التحرير الفلسطينية» ـ وهى فئة عريضة جدّا، كما يؤكد سجل التاريخ ـ يعد عملاً مشروعًا.

يتوافق الهجوم على تونس مع الممارسة الإسرائيلية منذ النشأة الأولى للدولة، فالثأر يوجه ضد العزل ولا يوجه إلى مدبرى الأعمال الوحشية. وتتبلور الإدانة القياسية الموجهة إلى منظمة التحرير الفلسطينية فى أن الفلسطينيين «بدلاً من أن يوجهوا الهجوم إلى الأعداء المحصنين كإسرائيل على سبيل المثال، قاموا بمهاجمة أهداف إسرائيلية لينة فى إيطاليا والنمسا وأماكن أخرى»، وتلك علامة أخرى على طبيعتهم الوضيعة والجبانة. تملصت الممارسة الإسرائيلية المماثلة، التى بدأت منذ فترة طويلة، وتتعدى تلك الفلسطينية فى الدرجة كثيراً، من مثل هذا التعليق وسط الإطراء العام على البطولة والكفاءة العسكرية، و«طهارة سلاح» حليفة أمريكا المفضلة. ويطرح مفهوم «الثأر» كذلك أكثر من عدة أسئلة وهو الموضوع الذى سنعرج عليه مباشرة.

بينما أشرف عام ١٩٨٥م على نهايته، استعرضت الصحافة سجل «عام من الإرهاب الدولى الدموى» شمل جرائم القتل التى وقعت فى لارناكا فى الخامس والعشرين من سبتمبر، واختطاف أخيلى لورو، والقتل الوحشى لسائح أمريكى معاق يدعى ليون كلينجهوفر، فى السابع من أكتوبر. لم يُدرج فى القائمة الهجوم الذى شنته إسرائيل على تونس فى الأول من أكتوبر. وفى استعراضها المطول لنهاية العام وكان موضوعه الإرهاب، أشارت صحيفة تايمز بإيجاز إلى قصف تونس، غير أنها أشارت إليه بوصفه مثالاً للثأر وليس بوصفه مثالاً للإرهاب، واصفة القصف بأنه «عمل يائس ترك أثرًا ضعيفًا فى العنف الفلسطينى وأثار احتجاج أمم أخرى». وفى إدانته لإيطاليا لتواطئها فى الإرهاب الدولى وذلك بإطلاق سراح الرجل «الذى يُزعم بأنه العقل المدبر لعملية اختطاف [أخيلى لورو]» يرى ألان ديرشوينز، أستاذ قانون بجامعة هارڤارد، أن الولايات المتحدة «كانت مؤكداً ستقوم بتسليم أى إرهابى إسرائيلى كان قد قام بأعمال عنف ضد مواطنى دولة أخرى» ـ **كأمثال آرييل شارون أو إسحاق شامير أو مناحم بيجن**. وقد ظهر هذا التقرير فى نفس اليوم الذى تم فيه تكريم بيريز فى واشنطن عقب قصف تونس، والإشادة به لتمسكه بالسلام، وفى المناخ الثقافى السائد، اعتبر ذلك طبيعيّا تمامًا.

نُقلت تصريحات ريجان المعنية بالإرهاب ونوقشت بجدية واضحة داخل التيار الرئيسى، **غير أن النقاد العرضيين قد علقوا على نفاق أولئك الذين يستنكرون الإرهاب الدولى فى الوقت الذى يرسلون فيه جيوشهم العميلة للقيام بأعمال قتل وتشويه وتعذيب وتخريب فى نيكاراجوا ـ قلما ذكر ذلك بشكل عام، حيث اعتبرت تلك الأعمال نجاحًا كبيرًا ـ وذبح عشرات الآلاف فى السلفادور فى محاولة مقصودة لتفادى التهديد المروع لقيام ديمقراطية ذات معنى هناك. وعقب محادثات ريجان ـ بيريز حول السلام والإرهاب، أفادت مجموعة قوامها ١٢٠ طبيب وممرضة وعدد آخر من العاملين فى الصحة بعد عودتها من مهمة لاستقصاء الحقائق فى نيكاراجوا ـ أجيزت من قبل اتحاد الصحة العامة الأمريكى ومنظمة الصحة العالمية ـ أفادت عن الدمار الذى لحق بالمستوطنات والمستشفيات وقتل العاملين بالصحة ونهب الصيدليات الريفية الذى أدى إلى حدوث نقص حاد فى الدواء، وتعطل البرنامج الناجح للتطعيم ضد شلل الأطفال،** ويمثل كل ذلك جزءًا واحدًا بسيطًا من حملة العنف التى نظمت فى مراكز الإرهاب الدولى فى واشنطن وميامى. ويتماثل كثيرًا مراسلو صحيفة تايمز مع نظرائهم مراسلى صحيفة پراڤدا فى أفغانستان، وذلك فى حماسهم للكشف عن أو إثبات دليل قوى على الأعمال الوحشية التى تقوم بها الكونترا. وهذا التقرير مثله مثل الكثير من التقارير الأخرى، لم يحفل به فى سجل الصحافة.

تقدم غارة تونس مقياسًا للنفاق الذى لا يسهل إدراكه مطلقًا. لنفترض أن نيكاراجوا كانت تقوم بتنفيذ أعمال قصف لواشنطن تستهدف ريجان وشولتز والإرهابيين الدوليين الآخرين. وقتل ١٠٠,٠٠٠ شخص «خطأ». من الممكن أن تبرر المعايير الأمريكية ذلك بأنه ثأر، إذا ما قبلت نسبة ٢٥ ضحية مقابل ضحية واحدة، كما حدث فى مقايضة لارناكا ـ تونس.

وبرغم ذلك قد نضيف من أجل الدقة، أنه فى هذه الحالة على الأقل، سوف يصبح المدبرون مستهدفين، ولن يكون هناك جدل حول الجهة التى بادرت بالإرهاب، وربما يستوجب مضاعفة العدد الفعلى للقتلى لعامل يتعلق بالأعداد النسبية للسكان. فقد صرح الرئيس ريجان بأن «الإرهابيين ومن يدعمهم يجب أن، وسوف، يتحملوا المسئولية». وبذلك يقدم الأسس الأخلاقية لأعمال الثأر، مع تأييد كامل من أشد النقاد هجاء داخل صحافة التيار الرئيسى، كما رأينا من قبل.

ميز بيريز نفسه بالفعل كرجل سلام فى لبنان. وعقب أن أصبح رئيسًا للوزراء، ازدادت حدة برامج إسرائيل الخاصة «بمقاومة الإرهاب» ضد المدنيين فى جنوب لبنان المحتل وبلغت ذروة وحشيتها مع عمليات القبضة الحديدية فى أوائل عام ١٩٨٥م، تلك العمليات التى علق كيرتس ويلكى عليها قائلاً بأن هذه العمليات لها «سمات عمليات فرق الموت فى أمريكا اللاتينية»، مؤكدًا على تقارير المراسلين الآخرين من مسرح الأحداث. ففى قرية «زراريا»، على سبيل المثال، قامت قوات الدفاع الإسرائيلى بتنفيذ عملية شمالى خط مواجهتها فى ذلك الوقت. **وعقب عدة ساعات من أعمال القصف الثقيل لزراريا. وثلاث قرى مجاورة لها، قامت قوات الدفاع الإسرائيلى بأسر جميع الذكور من سكان القرية وقتلت من ٣٥ إلى ٤٠ منهم.** وتعرض قرويون آخرون إلى الضرب أو القتل، وأطلقت قذيفة دبابة على العاملين بالصليب الأحمر الذين حُذروا ليبقوا بعيدًا. **وعقب ذلك فرت القوات الإسرائيلية بأعجوبة دون أن يسقط منها ضحايا فى الأرواح، كما جاء فى الوصف الإسرائيلى الرسمى، عن معركة مدفعية مع عصابات مسلحة بأسلحة ثقيلة.** وقبل ذلك بيوم، قُتل اثنا عشر جنديًا إسرائيليًا فى هجوم انتحارى وقع بالقرب من الحدود، غير أن إسرائيل أنكرت أن يكون الهجوم على زراريا ثأرًا لذلك الهجوم الانتحارى. وفى شعور منهم بالواجب، قدم المعلقون فى الولايات المتحدة الإنكار الإسرائيلى بوصفه حقيقيًا وأوضحوا أن «المخابرات قد توصلت إلى أن البلدة قد أصبحت معقلاً للإرهابيين.. وأن ما لا يقل عن ٣٤ عضوًا فى عصابات الشيعة قد قتل فى معركة المدفعية، وأن أكثر من مائة رجل قد اقتيد للتحقيق معه ـ من قرية واحدة صغيرة» (إيريك بريندل)، مما يشير إلى مستوى شبكة إرهاب الشيعة. ودون إدراك منهم لمنهج الحزب، قام جنود إسرائيليون بكتابة شعار باللغة العربية على جدران البلدة يقولون فيه «انتقام قوات الدفاع الإسرائيلى»، كان مراسلو الميدان قد لاحظوا وجوده.

وفى أماكن أخرى، أطلقت المدافع الإسرائيلية نيرانها على المستشفيات والمدارس واقتادوا «مشتبهًا فيهم» اشتملوا على مرضى كانوا على أسرة المستشفيات وفى غرف العمليات، إلى إجراء «استجواب» معهم أو إلى معسكرات الاعتقال الإسرائيلية، هذا من بين العديد من الأعمال الوحشية التى وصفها أحد الدبلوماسيين الغربيين ممن يسافرون كثيرًا إلى المنطقة، بأنها أعمال بلغت مستويات جديدة من «الوحشية المدروسة والقتل العشوائى».

صرح اللواء شلومو إيليا، رئيس وحدة ارتباط قوات الدفاع الإسرائيلى داخل لبنان قائلاً «إن السلاح الوحيد ضد الإرهاب هو الإرهاب، وأن إسرائيل لديها خيارات أخرى تفوق تلك المستخدمة بالفعل، للتحدث باللغة التى يفهمها الإرهابيون» فهذا المفهوم ليس بالجديد، فعمليات الجستابو فى أوروبا المحتلة، كانت مبررة باسم محاربة «الإرهاب»، وقد عثر على إحدى ضحايا كلاوس باربى مقتولاً ومعلقًا على صدره رسالة تقول: «الإرهاب مقابل الإرهاب» ـ وتصادف أن تبنت الجماعة الإرهابية البطاقة، وكذلك عنوان تغطية صحيفة ديرشبيجل لقصة القصف الإرهابى الذى قامت به الولايات المتحدة ضد ليبيا فى أبريل عام ١٩٧٦م. واعترضت الولايات المتحدة على مشروع قرار لمجلس الأمن يدعو إلى إدانة «الممارسات والتدابير الإسرائيلية التى اتخذت ضد المدنيين فى جنوب لبنان»، على أساس أن المشروع «يطبق معيارية مزدوجة»، فقد أوضحت جين كيركپاتريك قائلة: «نحن لا نعتقد فى أن قرارًا غير متوازن سوف ينهى الصراع فى لبنان».

استمرت العمليات الإرهابية لإسرائيل إلى أن أجبرت المقاومة قواتها على الانسحاب. وقد وضعت القوات الإسرائيلية والمرتزقة من جيش لبنان الجنوبى نهاية «لعام من الإزهاب الدولى الدموى» فى ٣١ ديسمبر عام ١٩٨٥م، حيث قاموا **«باقتحام قرية لمسلمين شيعة [قرية كونين] وأجبروا كامل مواطنيها الذين بلغ عددهم حوالى الألفين على مغادرتها». نسفوا المنازل وأضرموا النار فى عدد آخر منها، وورد فى تقرير أن حوالى ٣٢ من الشباب والكبار والنساء والأطفال من مواطنى القرية قد دفعوا من القرية إلى مدينة خارج «الحزام الأمنى» الإسرائيلى، حيث يوجد مركز قيادة لقوات الأمم المتحدة.**

من بيروت، أرسل هذا التقرير الذى بنى على ما أدلى به شهود عيان استعانت بهم الشرطة اللبنانية وصحفى من جريدة النهار المحافظة وحركة أمل الشيعية. ومن القدس قدم جرينبرج رواية مختلفة. لم تبن على مصادر محددة، بل كحقيقة بسيطة «لاذ القرويون المذعورون من جيش لبنان الجنوبى بالفرار من قرية «كونين» الشيعية عقب مقتل اثنين من جنود جيش لبنان الجنوبى داخل القرية».

هذه المقارنة، التى تعد نمطية، هى من النوع التثقيفى. استفادت الدعاية الإسرائيلية كثيرًا من حقيقة أن وسائل الإعلام تعتمد بشكل كبير على مراسلين من داخل إسرائيل.

ويمنح ذلك ميزتين مهمتين: الأولى: أن «الأخبار» تقدم إلى الجمهور الأمريكى من خلال الرؤية الإسرائيلية الرسمية، والثانية: أن المراسلين الأمريكيين عندما يقومون، فى المناسبات النادرة، بإجراء تحقيق مستقل، فبدلاً من أن يعتمدوا ببساطة على مستضيفيهم المتعاونين، اعتمدوا على نظام الدعاية الإسرائيلية ومؤسساتها المتعددة فى الولايات المتحدة التى تتذمر بشدة من تجاهل جرائم العرب، فى الوقت الذى تخضع فيه إسرائيل إلى تفحص دقيق عن أى هفوة صغرى.

العجز فى إدارة الأخبار بالطريقة المعتادة يخلق مشاكل فى بعض الأحيان. فعلى سبيل المثال، خلال حرب لبنان عام ١٩٨٢م، عندما لم تتمكن إسرائيل من السيطرة على تقارير شهود العيان التى يقدمها صحفيون من لبنان، أثار ذلك صرخة احتجاج مؤثرة فى الاعتراض على تجارة وتلفيق الأعمال الوحشية المزعومة فى «حرب نفسية كبيرة» شنت ضد إسرائيل الضعيفة المثيرة للشفقة، وعلامة أخرى على تأصل عداء الرأى العالمى للسامية، وبذلك أصبحت إسرائيل الضحية وليست المعتدية. وقد ثبت بلا جدال أن الاتهامات كاذبة وكثيراً ما كانت محض هزل وأن وسائل الإعلام قد بذلت أقصى جهد ـ كما كان متوقعًا منها ـ لترى الأمور من وجهة النظر الإسرائيلية، فهو أمر ليس يسيراً على الصحفيين الذى يحاولون الدفاع عن القصف الإرهابى الإسرائيلى. وكثيراً ما كانت شهادة المصادر الإسرائيلية أكثر وعورة عما ورد فى صحافة الولايات المتحدة، وما ظهر فى الصحف الأمريكية كان غالبًا رواية معالجة بشكل كبير للرؤية الحقيقية للصحفيين. بيد أن الاتهامات قد أخذت على محمل جاد برغم هزليتها الواضحة، بينما لم يحفل بالنقد الدقيق الموجه لوسائل الإعلام لخضوعها لوجهة النظر الأمريكية الإسرائيلية وطمسها للحقائق التى لا يمكن قبولها. وعلى نحو تقليدى، تحتوى دراسة أجريت حول «التحاليل التى نشرت لتغطية وسائل الإعلام لحرب ١٩٨٢م فى لبنان» على كثير من الشجب للصحافة لموقف العداء المزعوم لإسرائيل وعلى بعض الدفاع لوسائل الإعلام ضد هذه الاتهامات. غير أنه لم ترد مجرد إشارة واحدة إلى حقيقة وجود تحاليل نقدية شاملة ودقيقة جدّا للظاهرة النقيضة. وداخل القيود المحكمة للمناخ الفكرى والأيديولوچى الأمريكى، يُستمع فقط إلى ذلك النوع الأول من النقد، وهذه ظاهرة تقليدية ثبتت بوضوح فى مسألة حروب الهند الصينية وحروب أمريكا الوسطى.. إلخ، وتخدم أيضًا كوسيلة أخرى من وسائل السيطرة على الفكر.

لعمليات القبضة الحديدية التى تسعد القيادة الإسرائيلية بأن تصفها «إرهابًا» (راجع تعليقات اللواء إيليا، المذكورة آنفًا) هدفان رئيسيان: أولهما: يعلق چون كفنر (من لبنان). «استعداء الشعب على العصابات بجعل ثمن مساندتها غاليًا جدًا»، وبإيجاز، يؤخذ الشعب رهينة لهجوم إرهابى ما لم يقبل الترتيبات التى تعتزم إسرائيل فرضها بالقوة. والهدف الثانى هو مفاقمة الصراعات الداخلية فى لبنان وتحقيق إبدال سكانى عام إثر حرب أهلية يبدو أن المحتل حرض عليها كثيراً بالطريقة التقليدية منذ عام ١٩٨٢م. ويرى جيم سوير، المراسل من لبنان أن «هناك دليلاً قويًا»، «ذلك أن الإسرائيليين قد ساعدوا فى إشعال وتشجيع الصراع المسيحى الدرزى» فى منطقة الشوف. وفى الجنوب صرح أحد المسئولين الكبار فى المعونة الدولية أن **«شعبة الألاعيب القذرة عندهم بذلت كل ما فى وسعها كى تثير الاضطراب، غير أنها لم تنجح»**. و«أسلوبهم كان كريهًا «وهى وجهة نظر» تقاسمها فريق الإغاثة الدولية بأسره». و**«أفاد شهود عيان محليون أن جنودًا إسرائيليين كانوا عادة ما يطلقون النار على المخيمات الفلسطينية من مكان قريب من المناطق المسيحية فى محاولة لإثارة الفلسطينيين ضد المسيحيين»**، وأفاد مقيمون فى قرى المسيحيين **أن جنود الدوريات الإسرائيلية كانوا يجبرون المسيحيين والمسلمين على ضرب بعضهم الآخر تحت تهديد السلاح فى شكل آخر من أشكال «الإذلال الشاذ»**، وقد نجحت الأساليب فى نهاية الأمر. فقد قامت الجماعات المسيحية الموالية لإسرائيل بمهاجمة المسلمين بالقرب من صيدا بطريقة تضمن إثارة رد فعل من القوى الأكبر، لتفجر بذلك دائرة من العنف الدموى، أدى فى نهاية الأمر إلى فرار عشرات الآلاف من المسيحيين، فر كثير منهم إلى المناطق التى تسيطر عليها إسرائيل فى الجنوب، بينما دفعت عمليات القبضة الحديدية التى قادها بيريز عشرات الآلاف من الشيعة إلى الشمال.

وأصبح الادّعاء فى الولايات المتحدة هو أن إسرائيل كانت دائمًا تخطط للانسحاب، غير أن الإرهابيين الشيعة كانوا منغمسين فيما هو معتاد من تلذذ عربى بالعنف من أجل العنف مما أرجأ خطة الانسحاب. غير أن الحقيقة كما يراها چيم موير بشكل صحيح «إنها حقيقة تاريخية مؤكدة ذلك أن الإسرائيليين ما كانوا لينسحبوا فى ذلك الوقت». وأن مدى الانسحاب سوف تحدده شدة المقاومة.

أوضحت القيادة العليا الإسرائيلية أن ضحايا عمليات القبضة الحديدية كانوا «قرويين إرهابيين»، من ثم فقد تبين من هذا التعليق مقتل ثلاثة عشر قرويًا، وقد لاحظ

يوسى أولمرت من معهد شيلوه، معهد إسرائيل للدراسات الاستراتيچية، أن «هؤلاء الإرهابيين يقومون بعملياتهم بدعم من معظم السكان المحليين». وتذمر أحد القادة الإسرائيليين قائلاً بأن «الإرهابى.. له كثير من العيون هنا نظرًا لأنه يعيش هنا»، بينما قدم المراسل العسكرى لصحيفة جورسالم پوست وصفًا للمشاكل التى يجابهونها فى محاربة «المرتزقة الإرهابيين» أنهم «متعصبون، جميعهم متفان تمامًا لنصرة قضيته إلى حد أنهم يعرضون أنفسهم لخطر القتل خلال عملياتهم ضد قوات الدفاع الإسرائيلى»، التى يجب أن «تحافظ على النظام والأمن» فى جنوب لبنان المحتل برغم «الثمن الذى سيضطر السكان إلى دفعه» وعبر عن «إعجابه بالطريقة التى تنجز بها القوات [الإسرائيلية] عملها».

أوضح ليون وزيلتر الفارق بين «الإرهاب الشيعى» ضد الجيش المحتل والإرهاب الفلسطينى. وكلاهما ينم عن الطبيعة العربية البغيضة، لدى الفلسطينيين قتلة يرغبون فى القتل، والشيعة لديهم قتلة يرغبون فى الموت «ويدبرون أعمالاً» موحاة من حاجة العالم لمنقذ إلهى (المهدى المنتظر أو المسيح) ولن تجدى أى محاولات سياسية أو ديپلوماسية. (مع أنه ليس هناك أبسط من طرد الجيش المحتل من أرضهم). بل إن «جيشهم السرى» حركة أمل قد «نذرت نفسها» إلى «القضاء على إسرائيل»، منذ أن نشأت الحركة فى عام ١٩٧٥م ـ اكتشاف يتعدى الروايات التى حيكت عن هاسبارا فى إسرائيل.

استخدم المسئولون والمعلقون الأمريكيون نفس مفهوم الإرهاب على نطاق واسع، هكذا تروى الصحافة، دون تعليق، أن قلق وزير الخارجية شولتز حيال «الإرهاب الدولى» أصبح «همه الشاغل» إثر الانفجار الانتحارى الذى تعرضت له مشاة البحرية الأمريكية فى لبنان فى أكتوبر عام ١٩٨٣م، فقد كانت قوات اعتبرها الكثير من الشعب، وليس بالمستغرب تمامًا، كقوة جيش أجنبى أرسلت لتفرض «النظام الجديد» الذى شرعه العدوان الإسرائيلى. وكتب بارى روبين أن «الهدف الأهم للإرهاب الذى تدعمه سوريا داخل لبنان، هو إجبار القوات الإسرائيلية ومشاة البحرية الأمريكية على الانسحاب»، بينما قامت كلّ من إيران وسوريا بدعم «النشاط الإرهابى» من خلال «جماعات شيعية متطرفة» فى جنوب لبنان، كان من أمثلته الهجمات التى شنت على «جيش لبنان الجنوبى المدعوم إسرائيليًا». **وبالنسبة للمدافع عن إرهاب الدولة، تعد مقاومة الجيش المحتل أو مرتزقته المحليين إرهابًا يستحق انتقامًا قاسيًا**. وعلى وتيرة

واحدة يصف توماس فريدمان مراسل صحيفة تايمز فى إسرائيل الهجمات الموجهة ضد القوات الإسرائيلية فى جنوب لبنان بأنها «هجمات إرهابية» أو «إرهاب انتحارى» فقد كانت، يؤكد لنا، نتاج «مرض نفسى أو حماسة دينية». ويروى كذلك أن المقيمين داخل «الحزام الأمنى» الإسرائيلى الذين ينتهكون القواعد التى شرعها المحتلون **«قد قتلوا فى الحال مع إرجاء التحقيقات، وبعض من أولئك الذين قتلوا كانوا متفرجين أبرياء»**. بيد أن هذه الممارسة لا تعد إرهاب دولة. ويشير كذلك إلى أن إسرائيل «قد بذلت جهداً كبيراً للحد من تسرب الأخبار خارج المنطقة»، «فلم يسمح للصحفيين تغطية آثار الهجمات الانتحارية ولم يصرح فعليّا بمعلومات عنها». لم تمنع هذه الحقيقة بينه وبين الكتابة بمزيد من الثقة عن الخلفية والأوضاع النفسية واضطرابات أولئك الذين نعتهم المحتلون بصفة «إرهابيين».

وبينما يهنئ ريجان وبيريز بعضهما بعضًا على موقفهما ضد «الإرهاب البغيض» أمام مستمعيهما الذين يبجلونهما، أوردت الصحافة عملاً إرهابيًا آخر وقع فى جنوب لبنان، فقد أشارت العناوين الرئيسية فى نفس اليوم إلى أن **«إرهابيين يقتلون ستة ويدمرون محطة راديو مسيحية تملكها الولايات المتحدة فى جنوب لبنان»، ولماذا يدمر إرهابيون لبنانيون «صوت الأمل» الذى يديره المبشرون المسيحيون الأمريكيون؟ سؤال لم يطرح، لكن دعونا نبحث فيه، بغية توضيح مفاهيم الإرهاب والثأر**.

أحد الدوافع هو أن المحطة «تنطق باسم جيش لبنان الجنوبى» وهو قوة المرتزقة التى زرعتها إسرائيل فى جنوب لبنان لإرهاب الشعب المتواجد داخل «حزامها الأمنى»، ويجدر بالملاحظة أيضًا مركز المحطة الواقع بالقرب من قرية الخيَّام. والخيَام هذه لها قصة شهيرة فى لبنان وإسرائيل إن لم تكن شهيرة فى الولايات المتحدة. فقد ألمح زائيف شيف إلى هذه القصة خلال عمليات بيريز التى سماها القبضة الحديدية. لاحظ شيف أن إسرائيل عندما اجتاحت لبنان فى عام ١٩٨٢م كانت قرية الخيَّام «خاوية من السكان»، وبرغم ذلك فإن عدد سكانها الآن يبلغ ١٠,٠٠٠، وأن مدينة النبطية اللبنانية كان يقطنها ٥,٠٠٠، وعدد سكانها الآن ٥٠,٠٠٠. وأوضح شيف أن «هؤلاء وآخرون سوف يجبرون على ترك منازلهم إذا سمحوا للمتطرفين من شعبهم أو الفلسطينيين بمهاجمة المستوطنات الإسرائيلية». ذاك سوف يكون مصيرهم إذا سخروا من قوات الدفاع الإسرائيلى، التى كانت تهاجم آنذاك القرى اللبنانية وتقتل المدنيين بشكل عشوائى وتقوم بالتدمير فى دفاع ضد «الإهاب [الذى] لم يختف»، حيث كانت «الغارات تقع يوميّا على الجنود الإسرائيليين فى جنوب لبنان».

وبالنسبة إلى اللبنانيين الموجه إليهم التحذير، وبالنسبة إلى الإسرائيليين ـ أو على الأقل بعض منهم ـ لم يكن شيف بحاجة إلى تفسير سبب انخفاض عدد سكان مدينة النبطية إلى ٥٠٠٠، وخلو قرية الخيَّام من سكانها بحلول عام ١٩٨٢م. فقد دفع القصف الإرهابى الإسرائيلى منذ أوائل السبعينيات سكان الخيَّام إلى الخروج من قريتهم وأودى بحياة المئات. وقُتلت الحفنة المتبقية من سكان الخيَّام خلال اجتياح لبنان عام ١٩٧٨م، تحت مرأى من لواء الجولان المتميز، على يد ميليشيا حداد الموالية لإسرائيل، والتى «نجحت فى إقامة سلام نسبى فى المنطقة، ومنع عودة إرهابيى منظمة التحرير الفلسطينية». هكذا شرح رجل السلام.

تعد الخيَّام أيضًا موقع «سجن سرى» تديره «إسرائيل والمليشيات المحلية الموالية لها فى جنوب لبنان. . حيث وُضع المحتجزون تحت ظروف مريعة، وخضعوا إلى الضرب والتعذيب بالصدمات الكهربائية، طبقًا لنزلاء سابقين ومسئولى الإغاثة الدولية فى المنطقة». وذكر تقرير للصليب الأحمر أن «الإسرائيليين كانوا يديرون المركز»، ورفضت قوات الدفاع الإسرائيلى السماح له بالدخول. وفى تأكيد منه على هذه التقارير، يُردف هورويتز قائلاً بأن إسرائيل قد تعلمت «الدرس»، لذا فقد رتبت أن تتولى مرتزقة جيش لبنان التابعة لها إدارة غرفة التعذيب فى الخيَّام، كى تشيح بالنقد عنها. ولم تحظ تقارير التعذيب المطولة لأسرى سابقين باهتمام فى الولايات المتحدة، غير أنها حظيت به فى أماكن أخرى. ويرى بول كيسلر (من كلية فرنسا، وواحد من مؤسسى لجنة الأطباء الفرنسية المعنية باليهود السوفييت) مستنداً إلى هذا الدليل، أن معظم السجناء «قد قبض عليهم كمشتبه فيهم خلال عمليات البحث، أو أنهم كانوا قرويين قبض عليهم لرفضهم التعاون مع قوة الاحتلال، وبشكل خاص، لرفضهم الانضمام إلى «ميليشيا جيش لبنان الجنوبى» التى تقودها إسرائيل، ولم يُقاض أحد منهم أو يُحاكم، وبرغم ذلك فقد احتجز البعض منهم لأكثر من عام. وكانت الخيَّام هى المركز الرئيسى، غير أنها لم تكن المركز الوحيد. ويستمر كيسلر فى روايته «حول عمليات التعذيب النظامية التى يقوم بها حرس جيش لبنان الجنوبى الذى يدير السجون بتوجيه من الضباط الإسرائيليين».

قد يكون هناك الكثير يبقى ذكره، خلال تلك الفترة، حول الهجوم الإرهابى الذى شنه «متعصبون» على الخيَّام فى السابع عشر من أكتوبر عام ١٩٨٥م. ليت أمورًا مثل هذه تعد ملائمة لأن تصبح جزءًا من ذاكرة التاريخ بجانب أعمال إرهاب أخرى ذات نفع أيديولوچى عظيم.

عن النبطية أيضًا هناك قصص أخرى تستحق أن تحكى. فقد قام اثنان من مراسلى صحيفة جورسالم پوست ممن كانوا يطوفون جنوب لبنان فى محاولة للتنقيب عن دليل على إرهاب منظمة التحرير الفلسطينية والأعمال الوحشية، برغم وجود دليل قوى على الإرهاب الإسرائيلى وآثاره، فرار ٥٠,٠٠٠ من سكانها الذين يبلغ عددهم ٦٠,٠٠٠ نسمة. فقد كان الفرار «على الأغلب بسبب الخوف من قصف المدافع [الإسرائيلية]» أحد أعمال القصف هذه وقع فى الرابع من نوڤمبر عام ١٩٧٧م، حيث وقعت النبطية «تحت قصف مدفعى ثقيل من مواقع مارونية لبنانية [تدعمها إسرائيل]، وكذلك من بطاريات إسرائيلية على جانبى الحدود ـ ومن بعض النقاط الإسرائيلية القوية الست داخل الجنوب، واستمرت الهجمات إلى اليوم التالى وأسفرت عن مقتل ثلاث نساء بالإضافة إلى خسائر أخرى. وفى السادس من نوڤمبر أطلقت فتح صاروخين أسفرا عن مقتل إسرائيليين فى ناهاريا، مما أشعل معركة بالمدفعية، ووقع هجوم صاروخى ثان أسفر عن مقتل إسرائيلى واحد، ثم وقعت الغارات الإسرائيلية التى قتل فيها حوالى ٧٠ شخصًا كان معظمهم من اللبنانيين».

وذكر الرئيس المصرى السادات بأن هذا التبادل الذى كانت إسرائيل البادئة فيه، كان الدافع وراء عرضه لزيارة القدس التى جاءت بعد عدة أيام.

دخلت هذه الأحداث ذاكرة التاريخ بشكل مختلف، ليس فى الصحافة فقط، بل فى الثقافة أيضًا. «ففى محاولة لإعاقة الحركة التى تدعو إلى إقامة مؤتمر سلام» كتب إدوارد هالى (دون استناد إلى دليل) قائلاً: «لقد قامت منظمة التحرير الفلسطينية بإطلاق صواريخ كاتيوشا على قرية نهاريا الواقعة شمال إسرائيل فى السادس والثامن من نوڤمبر، أدت إلى مقتل ثلاثة أشخاص» وتحريك «الانتقام الإسرائيلى المحتم» فى التاسع من نوڤمبر، والذى سقط فيه من القتلى أكثر من مائة شخص فى هجمات «داخل وحول صور ومدينتين صغيرتين تقعان فى الجنوب».

وكما هى القاعدة فى التاريخ المنقح، يلعب الفلسطينيون دور الإرهابيين، ويلعب الإسرائيليون دور المنتقمين الذين يأخذون بالثأر، يثأر وربما بقسوة كبيرة. أما فى عالم الواقع فتختلف الحقيقة كثيرًا، وتلك مسألة ليس لها أدنى أهمية فى دراسة الإرهاب فى الشرق الأوسط.

نادرًا ما أشارت الصحافة الغربية إلى مأساة نبطية، وبرغم ذلك فهناك بعض الاستثناءات. ففى الثانى من ديسمبر عام ١٩٧٥م وقعت إحدى الهجمات

الإسرائيلية، حيث قامت القوات الجوية الإسرائيلية بقصف المدينة وقتل العشرات من المدنيين اللبنانيين والفلسطينيين باستخدام أسلحة مضادة للأفراد وقنابل وصواريخ. **وتعد هذه الغارة غير عادية، ذلك أن الصحافة أوردتها دون أن تثير اهتمامًا أو قلقًا؛ ربما لأنها بدت «ثأرًا»، فقد كانت ثأرًا تجاه مجلس الأمن الذى وافق على تخصيص جلسة لمناقشة مقترحات سلام دعمتها سوريا والأردن ومصر ومنظمة التحرير الفلسطينية.**

استمرت وتكررت القصة مع تغيير طفيف. ففى أوائل عام ١٩٨٦م، وبينما كانت أنظار العالم متجهة فى هلع نحو الإرهابيين المختلين فى العالم العربى، **أوردت الصحافة أن مدافع الدبابات الإسرائيلية قد صبت وابلها على قرية صريفا بجنوب لبنان، حيث استهدفت ثلاثين منزلاً كانت قوات الدفاع الإسرائيلى قد ادعت أنها تعرضت لإطلاق نار منها بواسطة «إرهابيين مسلحين» كانوا يقاومون عملياتها فى خلال ما وصفته بأنه بحث عن جنديين إسرائيليين تم «اختطافهما» داخل «الحزام الأمنى» الإسرائيلى فى لبنان. واستبعد التقرير الذى أعدته قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام من الصحافة الأمريكية بشكل كبير. يشير التقرير إلى أن القوات الإسرائيلية قد «فقدت صوابها بالفعل» خلال هذه العمليات، حيث قامت بإغلاق قرى بأكملها، ومنعت قوات الأمم المتحدة من إرسال الماء واللبن والبرتقال إلى القرى التى كنت تخضع لـ « عمليات استجواب» ـ أى عمليات تعذيب وحشية للرجال والنساء على يد قوات إسرائيلية ومرتزقتها المحلية، مع تأهب من قوات الدفاع الإسرائيلى. رحلت قوات الدفاع الإسرائيلى آنذاك وأخذت معها الكثير من القرويين بما فى ذلك النساء الحوامل، نقل البعض منهم إلى إسرائيل فى انتهاك آخر للقانون الدولى، وقامت بتدمير المنازل ونهب وهدم الأخرى منها، بينما صرح شمعون بيريز بأن بحث إسرائيل عن الجنود المختطفين يعبر عن موقفنا تجاه قيمة الحياة الإنسانية ومنزلتها.**

وعقب شهر واحد، أفاد راديو لبنان، فى الرابع والعشرين من شهر مارس: «أن قوات إسرائيلية، إما كانت قوات الدفاع الإسرائيلى أو مرتزقة جيش لبنان الجنوبى، قد قامت بقصف نبطية، **مما أدى إلى مقتل ثلاثة مدنيين وإصابة اثنين وعشرين، حيث ضربت القذائف السوق التجارى وسط المدينة عند مطلع النهار حيث يحتشد العامة للتسوق»**. وقد زعم بأن الهجوم كان ثأرًا لهجمة شنت على قوات المرتزقة الموالية لإسرائيل فى جنوب لبنان. أقسم أحد زعماء حركة أمل الشيعية بأن «المستوطنات والمنشآت الإسرائيلية لن تكون بمنأى عن ضربات المقاومة». وفى السابع والعشرين من

مارس، ضرب صاروخ كاتيوشا فناء مدرسة تقع شمالى إسرائيل أدى إلى إصابة خمسة أشخاص وتحريك هجوم إسرائيلى على مخيم للاجئين الفلسطينيين يقع قرب صيدا، أسفر عن مقتل عشرة أشخاص وجرح اثنين وعشرين، بينما صرح قائد المنطقة الشمالية الإسرائيلية عبر راديو جيش إسرائيل، بأن قوات الدفاع الإسرائيلى لم تحدد ما إذا كان الصاروخ قد أطلقته عصابات شيعية أم أن عصابات فلسطينية هى التى قامت بإطلاقه. وفى السابع من شهر إبريل، قامت الطائرات الإسرائيلية بقصف نفس المخيمات وقرية مجاورة مما أسفر عن مقتل اثنين وإصابة عشرين بادّعاء أن الإرهابيين قد انطلقوا منها بنية قتل مواطنين إسرائيليين.

ومن كل هذه الأحداث، نال الهجوم الصاروخى الذى وقع على شمال إسرائيل تغطية تليفزيونية غاضبة وحنقًا عامًا على «الإرهاب»، وبرغم ذلك فقد أغلق الباب على هذا الموضوع إلى حد ما، نظرًا للهستيريا الكبيرة التى أثيرت آنذاك حول «اجتياح» نيكاراجوا للهندوراس، حيث مارس جيش نيكاراجوا حقه المشروع فى عمل عسكرى ليخرج من أرضه عصابات إرهابية كان قوادها الأمريكيون قد أرسلوها فى عرض للقوة قبيل تصويت مجلس الشيوخ على تقديم المساعدات إلى الكونترا. ويشير ذلك إلى أن القضية الخطيرة فقط التى تخضع للنقاش والجدال هى ما إذا كان جيش الوكالة بمقدوره تحقيق الأهداف التى أوكلها إليه سيده. وعلى النقيض من ذلك، لم تكن إسرائيل تمارس حقًا مشروعًا فى عمل عسكرى بقصفها للمدن ومخيمات اللاجئين، ولا تقع مطلقًا أعمال الإرهاب الجماعى التى تقوم بها ولا عدوانها السافر على لبنان تحت هذا المفهوم. ولكن بوصفها دولة عميلة، ترث إسرائيل من الإمبراطور حق الإرهاب والتعذيب والعدوان. ونيكاراجوا بوصفها عدوة تفتقر بوضوح إلى الحق فى الدفاع عن أرضها ضد إرهاب دولى أمريكى. وبناء على ذلك، فإنه من الطبيعى وجوب تجاهل أعمال إسرائيل أو صرفها عن النظر، لأنها ثأر مشروع، فى الوقت الذى شجب فيه الكونجرس، «الماركسيين اللينينين النيكاراجويين» لهذا الدليل الجديد على التهديد الذى يفرضونه على سلام واستقرار المنطقة.

قُدم أيضًا الاجتياح الإسرائيلى للبنان فى يونيو عام ١٩٨٢م بصورة منقحة على نحو ملائم. فقد كتب شمعون بيريز أن عملية «سلام الجليل» قد شنت «لضمان عدم تعرض الجليل مرة أخرى إلى قصف بصواريخ كاتيوشا»، وأوضح إيريك براينديل أن «الهدف الأساسى للاجتياح الإسرائيلى فى عام ١٩٨٢م» كان بلا ريب «حماية منطقة الجليل..

من هجمات صواريخ الكاتيوشا والقصف الآخر القادم من لبنان»، وتخبرنا صفحات الأخبار لصحيفة تايمز بأن الاجتياح قد بدأ «إثر هجمات شنتها عصابات منظمة التحرير الفلسطينية على مستوطنات شمال إسرائيل»، وبأن (دون تعليق) القادة الإسرائيليين «قد أشاروا إلى أنهم كانوا يرغبون فى وضع نهاية للهجمات المدفعية والصاروخية التى تقع على الحدود الشمالية لإسرائيل»، وهو العمل الذى «تحقق خلال الثلاث سنوات التى قضاها الجيش الإسرائيلى فى لبنان».

وأضاف هنرى كام أن «أهل كيريات شيمونا لم يناموا فى ملاجئ القنابل ولم يشعر الآباء بالقلق على أطفالهم عند ذهابهم إلى المدارس أو إلى اللعب لمدة ثلاث سنوات تقريبًا. ولم تسقط صواريخ الكاتيوشا السوفييتية الصنع التى ضربت هذه المدينة التى تقع بالقرب من الحدود اللبنانية لعدة سنوات على فترات عشوائية، منذ أن قامت إسرائيل باجتياح لبنان فى يونيو عام ١٩٨٢م». ويرى توماس فريدمان أن «المجتمع الإسرائيلى سوف يغضب إذا ما سقطت الصواريخ مجددًا على الحدود الشمالية لإسرائيل بعد كل ما أنفق فى لبنان». «. . . ففى الوقت الراهن توقف سقوط الصواريخ على شمال إسرائيل. . وإذا ما بدأت مجدداً هجمات كبيرة على الحدود الشمالية لإسرائيل فإن الأقلية [التى تفضل بقاء الجيش فى لبنان] قد تتحول إلى أغلبية». «تمت عملية سلام الجليل ـ الاجتياح الإسرائيلى للبنان ـ فى المقام الأول لحماية السكان المدنيين من المدافع الفلسطينية»، هكذا يقرر فريدمان فى واحدة من القصص العديدة المعنية بالإنسان فى كفاح الإسرائيليين المعذبين. وتدافع الشخصيات السياسية عن نفس المعتقد باستمرار. **كتب زبينيو بريزنيسكى أن «زيادة التواجد العسكرى السورى واستغلال منظمة التحرير الفلسطينية للبنان للإغارة على إسرائيل، قد عجلا من الاجتياح الإسرائيلى [لعام ١٩٨٢م]» ويدعونا رونالد ريجان، فى إبداء آخر لجبن الأخلاق، إلى أن «نتذكر أن إسرائيل كان عليها ـ عندما بدأ كل ذلك [الاجتياح]، نظراً لانتهاكات وقعت على حدودها الشمالية من قبل الفلسطينيين، ومنظمة التحرير الفلسطينية ـ أن تجتاز الطريق إلى بيروت»، حيث كان هناك «عشرة آلاف فلسطينى[!] جلبوا الدمار على بيروت» وليس المعتدين الذين كان يدعمهم.**

تساعد هذه الروايات وعدد آخر لا يحصى، يحتوى الكثير منها على وصف دقيق للعذاب الذى حل بأهل الجليل الذين خضعوا إلى قصف الكاتيوشا العشوائى، فى خلق الصورة المعتمدة للمتعصبين الفلسطينيين المجهزين بأسلحة سوفييتية، وهم عنصر

رئيسى لشبكة الإرهاب الدولى ذات القاعدة الروسية، مما دفع إسرائيل إلى اقتحام وضرب مخيمات اللاجئين الفلسطينيين، وأهداف أخرى، مثلما كانت أى دولة ستفعل للدفاع عن شعبها من هجوم إرهابى عديم الرحمة.

يختلف عالم الواقع، مرة أخرى. فقد كتب ديفيد شيلر أن «خلال الأربع سنوات التى تفصل بين الاجتياح الإسرائيلى الأول لجنوب لبنان فى عام ١٩٧٨م واجتياح السادس من يونيو عام ١٩٨٢م، قتل إجمالى ٢٩ شخصًا فى شمال إسرائيل خلال كافة أشكال الهجمات التى جاءت من لبنان بما فى ذلك من قصف وعمليات تسلل عبر الحدود من قبل إرهابيين» غير أن «الحدود كانت هادئة» لمدة عام قبل اجتياح عام ١٩٨٢م. ويعد هذا التقرير غير عادى فى اقترابه على الأقل من نصف الحقيقة. **ففى الوقت الذى تراجعت فيه منظمة التحرير الفلسطينية عن عمليات التسلل عبر الحدود لمدة عام قبل الاجتياح الإسرائيلى لم تكن الحدود هادئة، حيث استمر الإرهاب الإسرائيلى الذى أودى بحياة العديد من المدنيين. فالحدود كانت «هادئة» فقط فى المصطلحات العنصرية للخطاب الأمريكى مرة ثانية. بالإضافة إلى ذلك لم يُشر شيلر وكذلك أقرانه، إلى أنه فى الوقت الذى قتل فيه تسع وعشرون شخصًا شمالى إسرائيل منذ عام ١٩٧٨م، قتل الآلاف من جراء عمليات القصف الإسرائيلية فى لبنان، ولم يُشر إلى ذلك فى الولايات المتحدة، وفى الأوقات النادرة أشير إليه بوصفه «عملاً ثأريًا».**

تعد أعمال القصف التى وقعت منذ عام ١٩٧٨م عنصرًا رئيسيًا فى «عملية سلام» كامب ديفيد التى، تكهن بأنها، أطلقت يد إسرائيل فى مد سيطرتها وقمعها فى الأراضى المحتلة، فى الوقت الذى كانت تشن فيه هجومًا على جارتها الشمالية بهدف الحصول على زيادة سريعة فى الدعم العسكرى الأمريكى مع خروج العائق العربى الرئيسى (مصر) من الصراع فى ذلك الوقت. ويرى ويليام كوانت أن **«خطة عملية اجتياح لبنان سعيًا وراء منظمة التحرير الفلسطينية [فى ١٩٨١ إلى ١٩٨٢م] يبدو أنها قد تزامنت مع التوصل إلى معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية»**. ويجدر بالذكر أن الصحفيين الأمريكيين الأكفاء قد فطنوا إلى المغزى الحقيقى لاتفاقات كامب ديفيد، برغم عدم الإفصاح عنه كلية داخل الولايات المتحدة، منذ ذلك الوقت وصاعدًا. وهكذا ففى إحدى المقابلات التى أجريت معه فى إسرائيل، أشار ديفيد شيلر إلى أنه **«بالنسبة إلى الجانب الإسرائيلى، يبدو لى أن معاهدة السلام قد أعدت الموقف للحرب**

فى لبنان، ومع خروج مصر من وضع المواجهة، شعرت إسرائيل بالحرية فى بدء حرب على لبنان، وهو شىء ربما ما كانت لتجرؤ على فعله قبل معاهدة السلام. . ومن السخرية أن حرب لبنان ما كانت لتقع بدون معاهدة السلام»، إنها ليست سخرية بل هى جزء جوهرى فى العملية. وعلى حد علمى، لم يكتب شيلر ذلك فى صحيفة تايمز خلال الخمس سنوات التى قضاها كمراسل للصحيفة فى إسرائيل وانتهت فى يونيو عام ١٩٨٤م، أو فى وقت لاحق لهذا التاريخ.

أردف شيلر قائلاً: «أعتقد بأنه ما كانت لتحدث مثل هذه المعارضة الكبيرة للحرب بين الإسرائيليين ما لم توجد مثل تلك المعاهدة للسلام»، ونظرًا لتواجده فى إسرائيل خلال ذلك الوقت، لم يفشل شيلر فى التوصل إلى أن «المعارضة الكبيرة للحرب» هى اصطناع دعائى لاحق أعد للحفاظ على صورة «إسرائيل الجميلة». فالمعارضة كانت بالفعل ضعيفة، إلى أن وقعت مذبحتا صبرا وشتيلا تلو الحرب (عندما هجر المؤيدون للحرب فى الولايات المتحدة المركب الغارقة، وصنعوا تاريخًا مخادعًا «للمعارضة المبكرة» مثلما حدث فى مسألة حرب الهند الصينية) ثم بعد ازدياد تكاليف الاحتلال.

وبالانتقال إلى عالم الواقع، يؤخذ فى الاعتبار أولاً الخلفية المباشرة لعملية «سلام الجليل». فقد التزمت منظمة التحرير الفلسطينية بوقف إطلاق النار المرتب أمريكيًا فى يوليو عام ١٩٨١م برغم المحاولات الإسرائيلية المتكررة لإثارة عمل ما يستخدم كذريعة لعملية الاجتياح المخطط لها. اشتملت على قصف وقع فى أواخر شهر أبريل عام ١٩٨٢م أسفر عن مقتل ٢٤ شخصًا، وإغراق قوارب صيد. . إلخ. والتوقعات الوحيدة كانت عبارة عن ثأر خفيف وقع فى شهر مايو عقب القصف الإسرائيلى، ورد فعل على القصف الإسرائيلى الثقيل والهجمات الأرضية التى وقعت فى لبنان فى شهر يونيو، حيث سقط فيها العديد من القتلى المدنيين. فقد كانت هذه الهجمات الإسرائيلية «ثأرًا» لمحاولة اغتيال السفير الإسرائيلى فى لندن على يد «أبو نضال» وهو العدو اللدود لمنظمة التحرير الفلسطينية، والذى لم يكن له مكتب فى لبنان ـ ومرة أخرى، قصة «الثأر» المألوفة. فقد كانت محاولة الاغتيال هذه هى الذريعة التى استخدمت للاجتياح الذى خطط له طويلاً.

تطالعنا صحيفة نيوريبابليك بأن نجاحات مفاوض الأمم المتحدة برايان أوركهارت «كانت نجاحات بسيطة، ومنسية إلى حد ما، مثل مفاوضة لوقف إطلاق نار فلسطينى فى جنوب لبنان عام ١٩٨١م على سبيل المثال»، فإن رغبة صحف الفريق المتشدد فى

«نسيان» الحقائق ليس بالمستغرب، غير أن انتشار زلات موائمة كزلات الذاكرة هذه لهو أمر جدير بالملاحظة.

اتبعت أحداث شهر يوليو عام ١٩٨١م نفس النمط كثيراً. ففى الثامن والعشرين من شهر مايو، كتب زائيف شيف وإيهود ياأرى، أن رئيس الوزراء مناحم بيجن ورئيس هيئة الأركان رفائيل إيتان **«قد خطا خطوة أخرى قد تضع دولتهما بشكل كبير على مشارف حرب على لبنان، بعمل أعد بشكل أساسى لتحقيق هذه الغاية»**، أى أنهما قد قاما بخرق وقف إطلاق النار، وذلك بقصف «مراكز منظمة التحرير الفلسطينية» (مصطلح يستخدم عادة فى الإشارة إلى ضحايا القصف الإسرائيلى، أيّا كانت هذه الضحايا) فى جنوب لبنان. **واستمرت الهجمات من البر والبحر حتى الثالث من يونيو، يتابع شيف وياأرى «بينما قام الفلسطينيون بالرد بحذر شديد خشية أن يؤدى رد فعل قوى إلى تحريك عملية أرضية إسرائيلية ساحقة». وطُبق مجدداً وقف لإطلاق النار خرقته إسرائيل مرة ثانية فى العاشر من شهر يوليو بعمليات قصف جديدة. وفى هذه المرة كان هناك رد فعل فلسطينى بهجمات صاروخية أفزعت الجليل الشمالية، وأتبعها قصف إسرائيلى ثقيل لبيروت ولأهداف مدنية أخرى. وفى خلال ذلك الوقت أعلن وقف لإطلاق النار فى الرابع والعشرين من شهر يوليو، مع سقوط حوالى ٤٥٠ عربى - جميعهم تقريباً من المدنيين اللبنانيين - وستة إسرائيليين.**

من كل هذه القصة، ذكر فقط العذاب الذى تعرضت له الجليل الشمالية التى خضعت لقصف عشوائى بالكاتيوشا، قام به إرهابيو منظمة التحرير الفلسطينية، مما دفع إسرائيل فى نهاية الأمر إلى الثأر باجتياحها للبنان فى يونيو عام ١٩٨٢م. وتعد هذه حقيقة، فى بعض الأحيان، حتى لدى الصحفيين الجادين الذين ليس لهم قنوات اتصال مع الدعاية الرسمية. فقد كتب إدوارد والش أن «الهجمات الصاروخية المتكررة التى وقعت عام ١٩٨١م قد وضعت [كيريات شيمونا] تحت الحصار مجدداً»، ووصف وضع «الآباء المذهولين» والإرهاب الذى نتج عن «قصف المدفعية والصواريخ المنطلقة من القواعد الفلسطينية القريبة»، دون إشارة أخرى إلى ما كان يحدث. وكتب كيرتس ويلكى، أحد أكثر الصحفيين الأمريكيين فى الشرق الأوسط تدقيقاً وإدراكاً، أن كيريات شيمونا «وقعت تحت نيران مدمرة انطلقت من قوات منظمة التحرير الفلسطينية

فى عام ١٩٨١م، فوابل صواريخ الكاتيوشا السوفييتية الصنع، كان كثيفًا إلى درجة أن أولئك المقيمين الذين لم يفروا كان مضطرين إلى قضاء ثمانية أيام وليال متعاقبة فى ملاجئ القنابل». ومرة ثانية دون إشارة إلى دوافع هذه «النار المدمرة»، أو إلى الوضع فى بيروت أو إلى المناطق المدنية الأخرى، حيث قتل المئات خلال القصف الإسرائيلى المدمر.

يقدم المثال رؤية أعمق عن مفاهيم «الإرهاب» و«الثأر»، كما أولت داخل النظام الأيديولوچى الأمريكى. وكذلك فى الافتراضات التى تستثنى، كنتيجة طبيعية، معاناة الضحايا الرئيسيين، وذلك للأسباب المعتادة.

إن القصة الرسمية التى تشير إلى أن «الهجمات الصاروخية والمدفعية على الحدود الشمالية لإسرائيل» قد توقفت بفضل عملية «سلام الجليل» هى قصة مخادعة على نحو مضاعف. أولاً: فالحدود كانت «مستقرة» لمدة عام قبيل الاجتياح، باستثناء الهجمات والتحرشات الإرهابية الإسرائيلية، وكانت الهجمات الصاروخية الكبيرة، التى وقعت فى شهر يوليو عام ١٩٨١م، عبارة عن رد فعل على الإرهاب الإسرائيلى الذى جنى فى هذه الحادثة وحدها من الأرواح حوالى مائة ضعف ما جناه رد فعل منظمة التحرير الفلسطينية. وثانيًا: فى تباين صارخ مع الفترة السابقة، فقد بدأت الهجمات الصاروخية ضد إسرائيل عقب انتهاء الاجتياح واستمرت منذ أوائل عام ١٩٨٣م. وذكرت مجموعة من الصحفيين الإسرائيليين المنشقين أنه خلال أسبوعين من شهر سبتمبر عام ١٩٨٥م، أطلق على الجليل أربعة عشر صاروخًا. إضافة إلى ذلك، ازدادت «الهجمات الإرهابية» بنسبة ٥٠ بالمائة داخل الضفة الغربية فى خلال الأشهر التى تلت الحرب، وازدادت إلى ٧٠ بالمائة بنهاية عام ١٩٨٣م منذ الحرب على لبنان، وأصبحت تمثل تهديداً خطيراً بحلول عام ١٩٨٥م، فلم تكن نتيجة مستغربة لأعمال وحشية ولتدمير للمجتمع المدنى والنظام السياسى للفلسطينيين.

لم يكن التهديد الذى تعرضت له الجليل الشمالية هو الدافع الحقيقى وراء اجتياح عام ١٩٨٢م، كما يذكر التاريخ المنقح بل العكس كما أعرب الاختصاصى الإسرائيلى القيادى فى شئون الفلسطينيين، البروفيسور يهوشوا پوراث بالجامعة العبرية (وهو أحد «المعتدلين» فى الحوار الإسرائيلى ومؤيد لفكرة حزب العمل فى «الحل الأردنى»

للفلسطينيين) عقب شن الغزو بشكل مقبول ظاهريًا. **يشير پوراث إلى أن قرار الاجتياح «قد نبع من حقيقة أن وقف إطلاق النار قد تم الالتزام به»، حيث كان ذلك يمثل «كارثة حقيقية» إلى الحكومة الإسرائيلية؛ نظرًا لأنه كان يهدد سياسة التملص من تسوية سياسية. «فأمل الحكومة»، يستطرد پوراث، «أن تعود منظمة التحرير الفلسطينية المضروبة، والتى تنقصها الإمكانيات التنظيمية، والقاعدة الأرضية التى تعمل منها، فتقوم بتفجيرات فى كافة أنحاء العالم واختطاف الطائرات وقتل كثير من الإسرائيليين»، وبذلك «تخسر جزءًا من الشرعية الدولية التى حصلت عليها» و«نستأصل خطر» إجراء مفاوضات مع ممثلين فلسطينيين، مما قد يهدد سياسة ـ يشترك فيها الحزبان الكبيران ـ الحفاظ على سيطرة قوية على الأراضى المحتلة.**

يشير افتراض القيادة الإسرائيلية الذى يبدو معقولاً إلى أن أولئك الذين يُصيغون الرأى العام داخل الولايات المتحدة ـ الدولة الوحيدة التى تأخذ بعين الاعتبار أن إسرائيل قد اختارت أن تصبح دولة مرتزقة تعمل على خدمة مصالح عائلها ـ بالمقدور الاعتماد عليهم لطمس التاريخ الحقيقى وتصوير الأعمال الإرهابية، التى نتجت عن العدوان الإسرائيلى، الفظائع بأنها أعمال عنف عشوائية، يمكن عزوها إلى عيوب فى الثقافة والشخصية العربية، إن لم تكن نقصًا راديكاليًا. ويستكمل التعليق الأمريكى التابع التشخيصات، بانقلاب دعائى مناسب لإرهاب الدولة، فى القدس وواشنطن.

أدركت إسرائيل ـ تمامًا ـ النقاط الأساسية. فقد صرح رئيس الوزراء إسحاق شامير على شاشات التلفزة، بأن إسرائيل قد دخلت فى حرب بسبب وجود «خطر كبير.. ليس كبيرًا بالقدر العسكرى، بقدر ما هو كبير سياسيًا»، مما حث الهجاءُ الإسرائيلى البارع بى مايكل على أن يكتب «لقد مات العذر الواهى المتعلق بالخطر العسكرى، أو الخطر الجليلى» حالما قمنا «بإزاحة الخطر السياسى» بالمبادرة بالضرب، والآن «شكرًا لله لم يعد هناك ما نتحدث معه». **وعلق الكاتب أرون باكار قائلاً: «إنه لمن السهل فهم وضع القيادة الإسرائيلية. فقد اتهم عرفات بالتحرك باستمرار نحو نوع ما من التسوية السياسية مع إسرائيل» و«من وجهة نظر الإدارة الإسرائيلية، يعد ذلك أسوأ تهديد ممكن» ـ يشمل ذلك حزب العمل وكذلك الليكود.**

ويرى الصحفى/ المؤرخ بينى موريس أن «منظمة التحرير الفلسطينية قد أوقفت نيرانها على طول الحدود الشمالية لمدة عام كامل. ومنعتها بشكل كامل ـ فى عدة مناسبات ـ عن الرد على الأعمال الإسرائيلية (التى أعدت بشكل خاص لاستدراج نيران منظمة التحرير الفلسطينية). وبالنسبة للضباط الكبار فى قوات جيش الدفاع، يستطرد موريس، «تأسست حتمية الحرب على منظمة التحرير الفلسطينية لأنها تمثل تهديداً سياسيّا لإسرائيل ولسيطرة إسرائيل على الأراضى المحتلة»، حيث إن «آمال الفلسطينيين داخل وخارج الأراضى المحتلة لتحقيق طموحات وطنية قد اعتمدت على وتدور فى فلك منظمة التحرير الفلسطينية» وكأى معلق سوى، يسخر موريس من الحديث الهستيرى حول الأسلحة المستولى عليها والتهديد العسكرى لمنظمة التحرير الفلسطينية، ويتنبأ بأن «شيعة غرب بيروت، كثيراً منهم كانوا لاجئين من عمليات القصف الإسرائيلى السابقة لجنوب لبنان فى السبعينيات، قد يتذكرون لأمد طويل حصار يونيو ـ أغسطس [١٩٨٢م] الذى فرضته قوات جيش الدفاع» مع ترديدات طويلة الأجل عن «إرهاب شيعى ضد أهداف إسرائيلية».

وعلى جانب اليمين، أشار إيهود أولمرت عضو الكنيست الذى ينتمى إلى الليكود إلى أن «الخطر الذى فرضته منظمة التحرير الفلسطينية على إسرائيل لا يكمن فى تطرفه، بل يكمن فى اعتداله الزائف، الذى استطاع عرفات أن يعرضه دون أن يُغفل هدفه الأساسى مطلقًا، وهو القضاء على إسرائيل» **(حقيقة تقبل الإثبات على شاكلة هدف ديفيد بن جوريون، عندما كان على رأس الحكم، لم يغفل مطلقا هدفه الأساسى فى التوسع إلى « حدود الطموحات الصهيونية» لتشمل جزءًا كبيراً من الدول المحيطة، وفى بعض الأحيان «الحدود التوراتية» من النيل إلى العراق، فى حين يُمكن نقل السكان الأصليين بطريقة ما)**. وذكر البروفيسور مناحم ملسون مدير الضفة الغربية الأسبق أن «من الخطأ الاعتقاد بأن التهديد الذى تمثله منظمة التحرير الفلسطينية لإسرائيل هو من النوع العسكرى بالدرجة الأولى، بل إنه من النوع السياسى الأيديولوجى»، **وقبيل الاجتياح أوضح آرييل شارون وزير الدفاع أن «الاستقرار فى الضفة الغربية» يستلزم «القضاء على منظمة التحرير الفلسطينية فى لبنان»**، وفيما بعد علق رفيقه اليمينى المتطرف رفائيل إيتان رئيس هيئة الأركان بأن الحرب كانت نجاحًا حيث إنها أضعفت كثيراً «الوضع السياسى» لمنظمة التحرير الفلسطينية و**«كفاح المنظمة**

لإقامة دولة فلسطينية»، بينما أكدت على قدرة إسرائيل **«فى إحباط أى هدف مماثل»**. وفى تعليقه على مثل هذه التصريحات، يرى المؤرخ العسكرى الإسرائيلى يورى ميلشتين (أحد المؤيدين لفكرة حزب العمل فى «الحل الأردنى») أن أحد أهداف الاجتياح فى مفهوم شارون ـ إيتان كان «وضع نظام جديد فى لبنان والشرق الأوسط» لدفع العملية الساداتية[1] فى الكثير من الدول العربية «لضمان ضم جوديا وساماريا [الضفة الغربية] إلى دولة إسرائيل» و«ربما للتوصل لحل للمشكلة الفلسطينية».

كتب عضو الكنيست أمنون روبنشتين الذى لقى استحسانًا كبيرًا داخل الولايات المتحدة لموقفه الليبرالى الحمائمى أنه برغم الالتزام بوقف إطلاق النار «تقريبًا» (يصف بذلك التزام منظمة التحرير الفلسطينية ولا يعنى به التزام إسرائيل) إلا أن اجتياح لبنان كان «له مبرراته»، نظرًا لتهديد كامن وليس لتهديد عسكرى فعلى، فالأسلحة والذخائر الموجودة فى لبنان كانت بقصد الاستخدام ضد إسرائيل فى نهاية الأمر. تفكر فى المعانى المتضمنة لهذه الحجة فى سياقات أخرى حتى وإن أخذنا على محمل جاد المزاعم حول التهديد العسكرى الكامن الذى تمثله منظمة التحرير الفلسطينية لإسرائيل.

يلاحظ أن روبنشتين قد استبق المعتقد الرائع الذى أعلنته إدارة ريجان لتبرر قصفها لليبيا فى إبريل عام ١٩٨٦م فى «دفاع عن النفس ضد هجوم مستقبلى»، والذى سنعرج عليه فى الفصل التالى.

يسلم المؤيدون الأمريكيون للأعمال الوحشية الإسرائيلية بنفس الحقائق من وقت لآخر. فقبيل الاجتياح، حث محرر صحيفة نيوريبابليك مارتن بيريتز ـ محاكيًا شارون وإيتان ـ إسرائيل على أن تقوم بواجبها، وأن تدبر لمنظمة التحرير الفلسطينية «هزيمة عسكرية أبدية» داخل لبنان، بحيث «تكشف للفلسطينيين فى الضفة الغربية أن كفاحهم لإقامة دولة مستقلة قد تكبد نكسة لسنوات طويلة» لكى «يتحول الفلسطينيون إلى أمة أخرى محطمة كالأكراد والأفغان»، وأوضح الاشتراكى الديمقراطى مايكل والزر ـ الذى يرى أن الحل للعرب الفلسطينيين ـ داخل إسرائيل أيضًا ـ يكمن فى ضم هذه «الفئة القليلة الأهمية داخل الأمة» ـ فى صحيفة نيوريبابليك عقب الحرب، حيث قال «أرحب بالتأكيد بالهزيمة السياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية، وأعتقد أن العملية

(١) نسبة إلى الرئيس الراحل السادات، رحمه الله ـ المترجم.

العسكرية المحدودة التى كانت ضرورية لإنزال تلك الهزيمة يمكن الدفاع عنها بموجب نظرية الحرب المشروعة».

من المثير للاهتمام ملاحظة التقارب فى هذه القضايا بين اليمين الإسرائيلى المتطرف والليبرالية اليسارية الأمريكية.

وبشكل موجز، كانت أهداف الحرب أهدافًا سياسية يأتى فى صدارتها الأراضى المحتلة و«النظام الجديد» فى لبنان. أما قصة حماية الحدود من الإرهاب، فهى عملية دعائية. وإذا ما عاود الإرهاب الفلسطينى نشاطه أصبحت الفائدة عظيمة. وإذا لم نستطع تعليق اللوم على عرفات، فيمكن على الأقل وصفه بأنه «الأب المؤسس للإرهاب الفلسطينى المعاصر» (نيوريپابليك) كى يتملص من جهوده التى ترمى إلى تسوية سياسية.

لم تنته مشكلة التملص من تسوية سياسية برغم القضاء على القاعدة السياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية، كما كان مرجوًا لها، لذا ظل من الضرورى التأهب لمحاربة التهديد والدفاع عن الحقيقة العقائدية؛ ذلك أن الولايات المتحدة وإسرائيل ينشدان السلام، غير أن الرفض العربى أعاق السلام. وهكذا ففى شهرى أبريل ومايو عام ١٩٨٤م، أطلق عرفات سلسلة من التصريحات فى أوروپا وآسيا دعا فيها إلى عقد مفاوضات مع إسرائيل تقود إلى اعتراف مشترك. وعلى الفور رفضت إسرائيل العرض وتجاهلته الولايات المتحدة. واحتلت رواية لوكالة اليونايتدپرس حول مقترحات عرفات صدر الصفحة الأولى فى صحيفة سان فرانسيسكو إيكزامينر، ونشرت الحقائق دون إبراز لها فى الصحف المحلية. أما الصحافة الوطنية [التى لا تقتصر فى أخبارها وتوزيعها على الولاية]، فقد طمست الرواية برمتها باستثناء ذكر ضئيل لها فى صحيفة واشنطن پوست عقب عدة أسابيع. وفرضت صحيفة نيويورك تايمز كذلك حظرًا على الأعمال التى تشير إلى الحقائق، بينما استمرت (بالاشتراك مع صحف أخرى) فى شجب عرفات لعدم رغبته فى اتباع حلول ديپلوماسية. وبشكل عام فكلما زاد نفوذ الصحيفة زاد تصميمها على طمس الحقائق، موقف طبيعى تمامًا يأخذ فى الحسبان موقف حكومة الولايات المتحدة فى هذه القضايا.

يدرك الإسرائيليون المطلعون موقف عرفات دون شك. إذ يرى اللواء (متقاعد) يهوشافات هاركابى، الرئيس الأسبق للمخابرات العسكرية، وهو مستعرب اشتهر بأنه

صقر للعديد من السنوات، بأن «منظمة التحرير الفلسطينية ترغب فى تسوية سياسية؛ نظرًا لأنها تعلم أن البديل مرعب وسوف يؤدى إلى تدمير كامل»، لذا «تبنى عرفات مواقف معتدلة نسبيًا فيما يتعلق بإسرائيل».

تؤكد هذه الملاحظات على عدة نقاط:

١ ـ هناك إطار سياسى حاسم يجب أن يُفهم الإرهاب من خلاله، إذا ما كنا جادين.

٢ ـ إن جرائم الآخر، وليست جرائمنا المماثلة لها أو الأسوأ منها، هى التى تشكل «الإرهاب» الجرائم الفلسطينية، وليست الإسرائيلية ولا الأمريكية.

٣ ـ استخدمت مفاهيم «الإرهاب» و«الثأر» كمصطلحات للدعاية وليست كمصطلحات للوصف.

وبشكل جذرى، عمدت الهستيريا التى أثيرت حول أعمال الإرهاب ـ المنتقاة بعناية، تلك التى قام بها العرب سواء كانوا فلسطينيين أو شيعة لبنانيين أو ليبيين أو سوريين أو حتى إيرانيين ـ إلى تحقيق أهداف سياسية خاصة محددة.

نعتبر مرة أخرى مسألة الثأر. فقد وقع أول هجوم صاروخى قام به الشيعة بعد عام ١٩٨١م ضد كيريات شيمونا فى شهر ديسمبر عام ١٩٨٥م بعد ما يقرب من أربعة أعوام من احتلال عسكرى ذى وحشية مفرطة، بلغت ذروتها خلال عمليات القبضة الحديدية التى نفذتها حكومة شمعون بيريز أوائل عام ١٩٨٥م. غير أن التغطية الإخبارية العرضية لوحشية المحتلين قد فشلت فى نقل القصة الكاملة، حيث إنها تجاهلت الواقع اليومى. وينطبق نفس الوضع على التغطية العرضية للأعمال الوحشية الإسرائيلية داخل الأراضى المحتلة، والتى فشلت فى نقل الصورة الحقيقية للإذلال الوحشى والقمع واستغلال العمالة الرخيصة (بما فى ذلك الأطفال) والسيطرة الفظة على الحياة السياسية والثقافية وتقليص التنمية الاقتصادية. وقبل شهر من وقوع الهجوم الصاروخى، قدمت چولى فلنت صورة أكثر إيضاحًا تروى فيها «قصة الحياة والموت فى إحدى قرى جنوب لبنان» حيث الشيعة. فقد كانت كفر رمان «مدينة زراعية مزدهرة يسكنها ثمانية آلاف شخص» تقع بالقرب من النبطية، وذلك خلال الفترة التى كان يخضع فيها جنوب لبنان إلى إرهاب منظمة التحرير الفلسطينية فقط، طبقًا للتاريخ

الرسمى. وعقب ما أسمته صحيفة نيويورك تايمز «تحررها» من نير منظمة التحرير الفلسطينية، أحيطت «بحصنين هائلين» قام بإنشائهما الإسرائيليون ووكيلهم اللبنانى المتمثل فى «جيش جنوب لبنان» الذى قام بعمليات قنص وقصف متواصلة، «استمرت فى بعض الأحيان من الفجر إلى ظلمة الليل، وفى أحيان أخرى لعدة ساعات فقط»، أسفرت عن سقوط الكثير من القتلى، وأدت إلى فرار ٦٠٠٠ شخص وجعل ثلاثة أرباع المدينة غير آهلة بالسكان فى هذه «القرية المحتضرة»، حيث لا يوجد أثر لأنشطة المقاومة، وشعبية بسيطة لها بين مزارعين لا يعنون بالسياسة، فوق رقعة جرداء لتل منبسط.

هل كان قصف كيريات شيمونا «إرهابًا غير ناتج عن تحرش» أم «ثأرًا»، وإن طرحت جانبًا الفظائع الفتاكة لعمليات القبضة الحديدية التى قادها بيريز ورابين؟

إلقاء نظرة على سير حياة الإرهابيين يُعتبر عملاً تنويريًا. فقد أجرت صحيفة واشنطن بوست مقابلة مع أحد الإرهابيين فى سلسلة من خمسة أجزاء تدور حول الإرهاب بالطريقة الانتقائية التقليدية. وباعتباره قضى عقوبة ثمانية عشر عامًا فى سجن إسرائيلى، فقد تم اختياره بوصفه «نموذجًا محاكيًا تمامًا للإرهابيين الموجودين فى السجون حاليًا من لندن إلى الكويت». «فى حياته مأساة ذاتية (موت والده فى انفجار قنبلة فى القدس عام ١٩٤٦م) صحبها اكتشاف عقيدة (الماركسية) مما أقحمه فى عالم القتل السياسى العمد». «والقنبلة التى قتلت والده، وأكثر من تسعين شخصًا آخر، كانت من إعداد الجماعة السرية الصهيونية إيرجون التى قام بقيادتها مناحم بيجن بمركز القيادة العسكرية البريطانية، فى فندق الملك داود». فقد تعرف على الماركسية، كما قال، من خلال «واقع الظروف فى المخيمات الفلسطينية» داخل الضفة الغربية المحتلة. إن «واقع» الأراضى المحتلة، ليس فقط داخل المخيمات، واقع حقيقى، ومرير وقاس، خارج صفحات مقالات تحرير صحافة الأمة، حيث نعلم أن الاحتلال كان «نموذجًا للتعاون فى المستقبل» و«تجربة فى التعايش بين العرب والإسرائيليين». والإيضاح لا يعنى التبرير، غير أن بعض الأسئلة تطرح نفسها حول الاستخدام السلس لمصطلحات مثل مصطلح «الثأر».

أو نفكر فى سليمان خاطر الجندى المصرى الذى قام فى الخامس من أكتوبر عام ١٩٨٥م بقتل سبعة سائحين إسرائيليين كانوا على شاطئ بحر فى سيناء. فقد أوردت الصحافة المصرية قول والدته بأنها «سعيدة لموت هؤلاء اليهود» ووصف طبيب من قريته

قرية بحر البقر عملية القتل بأنها إنذار موجه إلى «السلام الوهمى» بين مصر وإسرائيل. وما هو السبب وراء رد الفعل الفظيع هذا لجريمة لا توصف؟ ربما يوحى قصف تونس الذى سبقها بعدة أيام بالسبب، وربما يكون هناك أسباب أخرى. ففى عام ١٩٧٠م قامت الطائرات الحربية الإسرائيلية بقصف بحر البقر، مما أدى إلى مقتل ٤٧ تلميذًا، خلال «حرب الاستنزاف» وقتما اضطر القصف الإسرائيلى الواسع ـ حيث وصل بعضه إلى داخل عمق مصر ـ مليون ونصف من المدنيين من منطقة قناة السويس أن يهاجروا من مدنهم وقراهم، وأنذر بحرب شاملة، حينما أسقطت طائرات الفانتوم الأمريكية الحديثة، طائرات ميج كان يقودها طيارون سوفييت فوق الأراضى المصرية، وكانت تدافع عن العمق الداخلى لمصر.

هناك شىء ما مفقود، وكذلك عندما ذكر مراسل صحيفة تايمز بسلاسة أن خاطر «قد تصرف من منطلق دوافع وطنية معادية لإسرائيل» لم يكن ليتجاهل قصة بحر البقر وهجرة مليون ونصف مدنى من جراء القصف الجوى، لو كان الوضع معكوسًا بين مصر وإسرائيل.

يرى ديڤيد هيرست أن «مركز الإرهاب الرئيسى أو المركز الأهم بلا شك [بالمعنى الغربى للمصطلح] هو لبنان». فهو إما ينتج الإرهابيين، أو يخدم كدار ملائمة للوافدين: إما الفلسطينيين «الذين لم يعرفوا شيئًا غير القصف والقتل والذبح والتشويه والكراهية والخوف والخطر، أو اللبنانيين الذين لقى مجتمعهم ضربة قاضية من قبل العدوان الإسرائيلى المدعوم أمريكيًا». . . . «وإحدى القناعات المتجذرة فى عقول شباب اليوم» داخل تلك الجماعات هى أنه «تحت حكم الرئيس ريجان، الذى حمل الانحياز التقليدى لدولته تجاه إسرائيل إلى آفاق غير مسبوقة، أصبحت الولايات المتحدة هى الداعم القوى للنظام القائم بأسره، والذى أصبح لا يطاق إلى درجة أن أى وسيلة الآن تبرر القضاء عليه. وربما يكون دافع الإرهاب أقوى بين الفلسطينيين، غير أنه قد يكون أقوى بين اللبنانيين والعرب أو ـ فى أقصى ظهور له ـ بين الشيعة».

اتضحت النقطة الأساسية من خلال يهوشافات هركابى: «تقديم حل عادل للفلسطينيين يحترم حقهم فى تقرير المصير: ذلك هو حل مشكلة الإرهاب. فعندما يزول المستنقع لن يكون هناك مزيد من الناموس».

أسهم إرهاب الجملة، والعدوان الأمريكى الإسرائيلى بشكل مؤكد فى الموقف الذى يصفه هرست، تنبؤا وربما بوعى، ومن المحتمل أن كلاً من الدولتين الإرهابيتين قد رضيت بالنتيجة التى تمنحهما مبرراً للاستمرار فى دربهما الذى يتسم بالرفض والعنف. علاوة على ذلك، يمكن استغلال إرهاب القطاعى الذى أسهما فيه، فى إحداث شعور مناسب بالخوف وتعبئة داخل المجتمع، مثلما هو لازم لمزيد من الأهداف العامة. فكل المطلوب هو نظام عقائدى يصرخ جماعيًا عندما تستدعى الضرورة، ويقمع أى إدراك لمبادرات الولايات المتحدة، ونمطها، ومصادرها، ودوافعها. وبذلك المنطق، يلزم صانعى السياسة إيجاد عدة مخاوف، كما يشير السجل.

وصفت الأعمال الإرهابية من قبل مدبريها على نحو مميز بأنها «أعمال ثأرية» (أو فى حالة الإرهاب الأمريكى والإسرائيلى بأنها«وقائية»)، من ثم فإن قصف تونس كان ثأراً مزعومًا لحوادث القتل فى لارناكا، مثلما أشير إليه، برغم عدم وجود ادعاء بأن ضحايا قصف تونس قد كان لهم علاقة بحادثة لارناكا. بُررت الحادثة الثانية أيضًا بأنها «ثأر»، إذ كانت رد فعل لقيام إسرائيل باختطاف سفن كانت مبحرة من قبرص إلى لبنان. وسُلم فى الولايات المتحدة بالادعاء الأول بوصفه مشروعًا ولم يلق بال إلى الادعاء الثانى أو استهزئ به. تمييز بنى على التزام أيديولوچى، طبقًا للقاعدة.

بطرح المبررات التى بررت العنف الإرهابى جانبًا، ومتابعة سجل الحقائق، **فليس هناك شك فى أن إسرائيل كانت تقوم بتنفيذ عمليات اختطاف للسفن والأشخاص فى البحار للعديد من السنوات، رافقها قليل من التعليق وعدم الاكتراث داخل الولايات المتحدة فيما يتعلق بهذه الجريمة، التى أثارت قلقًا وغضبًا كبيرين عندما كان المدبرون هم العرب. بل إن المحكمة العليا الإسرائيلية قد اعتمدت على هذا الإجراء. وعندما تقدم عربى بعريضة استئناف لحكم سجن صدر بحقه بموجب أنه ألقى القبض عليه خارج المياه الإقليمية الإسرائيلية، أصدرت المحكمة العليا الحكم بأن «قانونية الحكم والحبس لا تتأثر بالطريقة التى جلب بواسطتها المشتبه فيه إلى الأراضى الإسرائيلية»، وأقرت (مرة أخرى) بأن المحكمة الإسرائيلية قد تصدر حكمًا على شخص قام بأعمال ـ خارج إسرائيل ـ تعتبرها أعمالاً إجرامية. فى هذه الحالة، أوضحت المحكمة أن «أسبابًا أمنية» جعلت من الضرورى بقاء مقدم عريضة الاستئناف فى السجن.**

بالعودة إلى سجل التاريخ، **ففى عام ١٩٧٦م**، طبقًا لعضو الكنيست (اللواء متقاعد) ماتيتياهو بيلد، **بدأ الأسطول الإسرائيلى فى الاستيلاء على قوارب يملكها مسلمون لبنانيون ـ سلمها إلى الحلفاء المسيحيين اللبنانيين الموالين لإسرائيل الذين قاموا بقتلهم ـ فى محاولة لإجهاض خطوات نحو مصالحة رتب لها بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل. سلم رئيس الوزراء رابين بالحقائق غير أنه ذكر أن القوارب قد تم الاستيلاء عليها قبل هذه الترتيبات، بينما رفض وزير الدفاع شمعون بيريز أن يعلق على الحادثة. وعقب مبادلة سجناء تمت فى نوفمبر عام ١٩٨٣م، ذكرت رواية فى صدر صحيفة تايمز فى المقطع الثانى عشر منه أن ٣٧ من السجناء العرب، الذين احتجزوا فى معسكر سجن أنسار ذى السمعة السيئة، «قد ألقى الأسطول الإسرائيلى القبض عليهم مؤخرًا، بينما كانوا يحاولون شق طريقهم من قبرص إلى طرابلس» شمالى بيروت، ملاحظة لم تستحق التعليق هناك أو فى أماكن أخرى.**

فى يونيو، من عام ١٩٨٤م، قامت إسرائيل ـ تحت وابل من القصف ـ باختطاف «عبارة» كنت تبحر بين قبرص ولبنان، وذلك على مبعدة خمسة أميال من الساحل اللبنانى، وأجبرتها على التوجه إلى حيفا، حيث اعتقلت تسعة أشخاص، ثمانية منهم كانوا لبنانيين وتاسعهم كان سوريًا. أطلق سراح خمسة منهم بعد استجوابهم واحتجز أربعة بينهم امرأة وصبى كانوا عائدين إلى بيروت من إجازة فى انجلترا وأطلق سراح اثنين بعد ذلك بأسبوعين، بينما ظل مصير الآخرين غير معلوم. واعتبرت المسألة غير مهمة على الإطلاق. واقترحت صحيفة الأوبزرفر اللندنية أن هناك «دافعًا سياسيًا» يجبر المسافرين على ركوب عبارة تبحر من ميناء جونيه المارونى بدلاً من الركوب من غرب بيروت الذى يسيطر عليه المسلمون، ليدرك اللبنانيون أنهم «بلا قوة»، ويجب أن يتوصلوا إلى اتفاق مع إسرائيل. شجبت لبنان «عمل القرصنة» هذا الذى وصفه جود فرى يانسن بأنه «بند آخر» فى «قائمة طويلة من اللصوصية الدولية» لإسرائيل. و«للاستمرار فى العمليات الإرهابية البحرية» أردف يانسن قائلاً «قصف الإسرائيليون آنذاك جزيرة صغيرة قبالة طرابلس قيل بأنها قاعدة للقوات المحمولة بحرًا لمنظمة التحرير الفلسطينية»، وهذا ادعاء رفضه يانسن بوصفه «هزليًا»، وذكرت الشرطة اللبنانية أن ١٥ شخصًا قد قتلوا، وأصيب عشرون وفقد عشرون، جميعهم من اللبنانيين، صيادين وأطفال، كانوا بمعسكر كشافة.

فى تقريرها حول «الاعتراض» الإسرائيلى (وبشكل أكثر دقة، الاختطاف) للعبارة، لاحظت صحيفة تايمز أن قبيل حرب عام ١٩٨٢م، «قام الأسطول الإسرائيلى بشكل مستمر باعتراض السفن المتجهة نحو مينائى صور وصيدا فى الجنوب أو المغادرة لهما للتفتيش عن العصابات»، وكما هو معتاد، سلمت الصحيفة بالادعاءات الإسرائيلية على ظاهرها: أما «اعتراض» سوريا لسفن مدنية إسرائيلية بذريعة مماثلة، فقد اعتبر مختلفًا قليلاً. **وعلى نحو مماثل، سُلم باختطاف إسرائيل لطائرة مدنية ليبية فى الرابع من فبراير عام ١٩٨٦م، برباطة جأش، وانتقد، إذا ما كان انتقد بالمرة، بوصفه خطأ بنى على أخطاء استخباراتية. وفى الخامس والعشرين من شهر أبريل عام ١٩٨٥م، تم اختطاف العديد من الفلسطينيين من قوارب مدنية كانت تبحر بين لبنان وقبرص واقتيدوا إلى وجهات سرية داخل إسرائيل، حقيقة أصبحت علنية (داخل إسرائيل) عندما أجرى التليفزيون الإسرائيلى، مقابلة مع أحدهم، مما دفع بأهالى المخطوفين إلى التقدم بالتماسات للمحكمة العليا، ويحتمل أن هناك آخرين، لا نعلم عنهم شيئًا.**

لم تثر أى من هذه الحالات، التى ظهر معظمها من خلال التعليق العابر فقط، أى اهتمام فيما عدا ذكر عابر أن «سجناء الأمن» العرب الذين أطلق سراحهم فى عملية تبادل مع سوريا، كانوا فى الواقع «مقيمين مع الدروز بالقرى التى تقع فى القسم الذى ضمته إسرائيل من مرتفعات الجولان الاستراتيجية». وقد اعتبر أنه امتياز لإسرائيل القيام باختطاف السفن واختطاف الأشخاص، حين تشاء، وكذلك قصف ما تطلق عليه «أهدافًا إرهابية» بمصادقة من الرأى السائد فى الولايات المتحدة، مهما كانت الحقائق.

ينبغى علينا أن نمكث برهة للوقوف على الهجوم الإسرائيلى على الجزيرة التى تقع قبالة طرابلس شمالى بيروت، حيث قتل فيها صيادون لبنانيون، وكشافة من الصبية بمعسكر للكشافة. لقى هذا الهجوم اهتمامًا ضئيلاً، غير أن تلك هى القاعدة فى حالة مثل هذه الفظائع الإسرائيلية المستمرة بخلاف الهجمات الفلسطينية وأكثرها رعبًا تلك العملية الوحشية التى وقعت فى معالوت عام ١٩٧٤م، حيث قتل ٢٢ عضوًا من جماعة للشباب البرلمانيين فى تبادل لإطلاق النار، عقب أن رفض موشى ديان ـ إثر اعتراضات اللواء موردخاى جور ـ النظر فى إجراء مفاوضات حول مطالب الإرهابيين بإطلاق سراح السجناء الفلسطينيين. وقد يتساءل المرء: لماذا يعد مقتل الكشافة

اللبنانيين عملية أقل وحشية؟وفى الواقع، ليس الأمر هكذا على الإطلاق، إذ أنها قد دبرت من قبل «دولة تعنى بالحياة الإنسانية» (واشنطن بوست) صحبها «هدف أخلاقى سام» (تايم) وربما يكون فريداً فى التاريخ.

قبل يومين من هجمة معالوت، قامت الطائرات الإسرائيلية بقصف قرية الكفر اللبنانية حيث قتل أربعة مدنيين. وطبقًا لإدوارد سعيد، وقعت هجمة معالوت «بعد أسبوعين من القصف الإسرائيلى المستمر بقنابل الناپالم لمخيمات اللاجئين الفلسطينيين فى جنوب لبنان» حيث قُتل أكثر من مائتى شخص. وفى خلال ذلك الوقت، دخلت إسرائيل فى عمليات واسعة النطاق لحرق الأراضى فى جنوب لبنان وعمليات فدائية باستخدام المدافع والقنابل والأسلحة المضادة للأفراد والناپالم، ربما قتل فيها الآلاف (لم يقلق الغرب لذلك، إذ لم تتوفر أرقام محددة عن هذه العمليات) ودفع بمئات الآلاف شمالاً إلى الأحياء الفقيرة التى تحيط ببيروت، فقد كان الاهتمام سطحيًا والتقارير ضئيلة. ولم تدرج أىٌ من هذه العمليات فى حوليات الإرهاب، كأنها لم تحدث بقدر ما كان التاريخ المنضبط معنيًا. غير أن الهجمات الإرهابية الفلسطينية الدموية التى وقعت فى أوائل السبعينيات قد أدينت (بالطبع طبقًا للعقيدة) بشكل لاذع، ولا زالت قائمة كدليل على أن الفلسطينيين لا يمكن أن يكونوا شركاء فى مفاوضات حول مصيرهم. وفى خلال ذلك الوقت، أدينت وسائل الإعلام على نحو منتظم لكونها مبالغة فى انتقاد إسرائيل، بل مؤيدة لمنظمة التحرير الفلسطينية ـ انقلاب فى الدعاية ذو أبعاد كبيرة.

قد نلاحظ التأويل المقدم لهذه الأحداث من قبل القيادات الإسرائيلية التى كرمت بوصفها قيادات معتدلة **كإسحاق رابين الذى عمل سفيرًا لدى واشنطن ثم أصبح رئيسًا للوزراء خلال فترة أسوأ الفظائع الإسرائيلية فى لبنان قبل معاهدة كامب ديڤيد، يقول إسحاق رابين فى مذكراته «لم نستطع تجاهل وضع المدنيين فى جنوب لبنان. . وقد كان من واجبنا الإنسانى مساعدة سكان المنطقة ومنع إبادة الإرهابيين العدوانيين لهم». لم يعثر نقاد مذكرات رابين على شىء خطأ فى هذه الكلمات، فقد وضع بفعالية كبيرة تاريخًا ذا نفع أيديولوچى، وعنصرية شديدة معادية للعرب فى الغرب.**

من الجدير بالملاحظة أيضًا أن إسرائيل ليست بمفردها فى التمتع بحق القرصنة والاختطاف. فقد اتهم تقرير لوكالة تاس يدين اختطاف أخيلى لورو فى أكتوبر

١٩٨٥م الولايات المتحدة بالنفاق، حيث إنها منحت الرجلين اللذين قاما باختطاف الطائرة السوفييتية وقتلا مضيفة الطائرة وجرحا أفراد الطاقم حق اللجوء إلى الولايات المتحدة التى رفضت تسليمهما.

هذه القضية غير معروفة على الإطلاق، وقد يبدو أن اتهام النفاق له فوائد. القضية أيضًا غير فريدة، إذ يرى إبراهام سوفر، المستشار القانونى لوزارة الخارجية، أنه «خلال الخمسينيات، برغم الاعتراض الكبير لأمريكا على اختطاف الطائرات، إلا أنها وحلفاءها الغربيين قد رفضوا طلبات قدمتها تشيكوسلوفاكيا والاتحاد السوفييتى وپولندا ويوغسلافيا وأنظمة اشتراكية أخرى، بإعادة الأشخاص الذين اختطفوا طائرات وقطارات وسفنًا ولاذوا بالفرار». ويزعم سوفر أن الولايات المتحدة «قد راجعت سياستها» فى أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات «عندما بلغت عمليات اختطاف الطائرات نسبًا وبائية» وفرضت «مشكلة خطيرة جدًا وتهديدًا كبيرًا جدًا لسلامة المسافرين الأبرياء يجب رفعه»، واستطرد موضحًا أن عمليات الاختطاف بدأت فى التوجه ضد الولايات المتحدة وحلفائها، وبذلك دخلت تحت مسمى الإرهاب بدلاً من أن تقع تحت مسمى المقاومة البطولية لأعمال القمع.

يجب أيضًا الإشارة إلى أول حادثة اختطاف طائرة فى الشرق الأوسط ـ تلك الحادثة التى لم تكن عملاً مألوفًا ـ نُفذت من قبل إسرائيل فى ديسمبر عام ١٩٥٤م، حيث اعترضت المقاتلات الإسرائيلية طائرة مدنية تابعة للخطوط الجوية السورية وأجبرتها على الهبوط فى مطار ليدا. فقد كانت نية رئيس هيئة الأركان موشى ديان، طبقًا لما كتبه رئيس الوزراء موشى شاريت فى يومياته الخاصة، هى «احتجاز رهائن بغية إطلاق سراح أسرانا فى دمشق». كان الأسرى جنودًا إسرائيليين قُبض عليهم خلال مهمة تجسس داخل سوريا. وإنه نفسه ديان الذى ـ كى لا ننسى ـ رتب بعد ٢٠ عامًا محاولة الإنقاذ التى أدت إلى مقتل الصبية الإسرائيليين فى معالوت، فى محاولة لإطلاق سراح الأسرى الفلسطينيين فى إسرائيل. وكتب شاريت للخاصة: «ليس لدينا مبرر على الإطلاق للاستيلاء على الطائرة»، وأنه ليس لديه «سبب للشك فى صدق التأكيد الحقيقى لوزارة الخارجية الأمريكية، أن العمل الذى قمنا به ليس له سابقة فى تاريخ الممارسة الدولية»، غير أن الحادثة اختفت من التاريخ، إذ ظهر على التليفزيون الإسرائيلى سفير إسرائيل لدى الأمم المتحدة بنيامين نتنياهو ـ الذى أصبح حاليًا معلقًا مفضلاً على الإرهاب الدولى

يحظى باستحسان كبير ـ واتهم منظمة التحرير الفلسطينية بأنها «ابتدعت» اختطاف الطائرات وكذلك قتل الدبلوماسيين، دون أن يخشى التكذيب.

أما فيما يخص قتل الدبلوماسيين، فيمكننا أن نشير فقط إلى حادثة اغتيال وسيط الأمم المتحدة فولك بيرناردوت فى عام ١٩٤٨م على يد جماعة إرهابية تزعمها الرئيس المباشر لنتنياهو وزير الخارجية إسحاق شامير، وهو واحد من القادة الثلاثة الذين أعطوا أوامر الاغتيال. واعترف سرّا صديق مقرب لـ «بن جوريون» بأنه كان واحدًا من الذين قاموا بعملية الاغتيال، غير أن «بن جوريون» احتفظ بالأمر سرّا، وبأن الحكومة الإسرائيلية قد رتبت لهروب أولئك المسئولين عن عمليات الاغتيال من السجن ومغادرة الدولة. **وفى تقرير شهادته، كتب المؤرخ الصهيونى جون كيمش «لم يكن هناك احتجاج على مستوى الأمة قاطبة أو عزم على القبض على المدبرين، ولم يكن هناك الكثير من السخط الأخلاقى»، «فقد كان موقف الغالبية هو أن عدوا آخر لليهود قد سقط على جانب الطريق». وتلقى الاغتيال «إدانة، وتأسفًا، واستهجانًا، إذ أنه قد يعيب إسرائيل ويجعل عمل ديبلوماسييها أكثر صعوبة، وليس لأن اللجوء إلى الاغتيال كان خطأ فى حد ذاته».**

يعد تكريم الإرهابيين الذين شاركوا فى أعمال الكفاح الوطنية تكريمًا قياسيًا تمامًا، وبلا ريب، فى داخل الولايات المتحدة أيضًا. . غير أنه فى الذاكرة الانتقائية تجد أعمال الأعداء فقط مكانًا بوصفها « جرائم الإرهاب البغيض».

عقب اختطاف أخيلى لورو فى ثأر لقصف تونس، أصبحت قضية اختطاف السفينة تمثل اهتمامًا غربيًا كبيرًا. فقد خلصت دراسة أجرتها وكالة رويترز إلى أنه «كان هناك عدد من عمليات اختطاف السفن منذ عام ١٩٦١م»، وقدمت عدة أمثلة قام بها مسلمون، ولم تدرج على القائمة عمليات الاختطاف التى قامت بها إسرائيل.

لا يعد الاختطاف الشكل الوحيد للإرهاب الذى يسقط من القائمة ومن سجل التاريخ عندما يقوم بتنفيذه أصدقاؤنا. فقد أوضحت سفيرة الأمم المتحدة چين كيرك پاتريك أن نسف سفينة الاحتجاج المناهضة للأنشطة النووية التابعة لمنظمة «جرين پيس راينبو واريور» على يد عملاء فرنسيين وقتل أحد أفرادها لا يعد إرهابًا، إذ قالت «أود أن أذكر صراحة أن الفرنسيين لم يقصدوا مهاجمة المدنيين والمتفرجين والتشويه والتعذيب أو القتل» مرافعة بمقدور الإرهابيين الآخرين أن يقدموها بسهولة. وفى

مقالتها الافتتاحية الرئيسية، تحت عنوان «أفضل ساعات ميتران» كتبت صحيفة ذى آسيان وول ستريت جورنال أن **«حملة جرين پيس هى حملة عنيفة وخطيرة بشكل أساسى.. إلى حد أن الحكومة الفرنسية كانت مستعدة لاستخدام القوة ضد راينبو واريور.. مما يشير إلى أن الحكومة قد وضعت أولوياتها فى المقام الأول»**. وفى صحيفة نيويورك تايمز، استعرض ديڤيد هوسيجو كتابًا حول الموضوع ينتقد الفرنسيين لما قاموا به من «تخبط» و«خطأ فادح» إذ «لم يكن هناك داع» لنسف السفينة، وقد كان بمقدور الفرنسيين «الحصول على نفس المأرب بأقل دعاية غير مستحبة». ولم ترد إشارة إلى أن بعض الكلمات الأشد قسوة قد كانت ملائمة. وعلى اعتبار هذه «الغلطات» خلص هوسيجو إلى أنه «كان من الصعب تبرير عدم تجريم [وزير الدفاع] السيد هيرنو، ومن الصعب إلقاء اللوم على النيوزلنديين لاحتجاز الضباط الفرنسيين». **لقد بحث هوسيجو فى أوجه التشابه مع واترجيت غافلاً جانب القياس الرئيسى، ففى تلك الحالة أيضًا قد كان هناك ضجة كبيرة حول «الغلطات» والجريمة الصغيرة، وتهتئة ذاتية كبيرة من قبل وسائل الإعلام، بينما تجاهلت الصحافة والكونجرس الجرائم الأكثر جسامة لإدارة نيكسون، وما سبقها من إدارات، والتى انكشفت فى ذلك الوقت باعتبارها غير ذات علاقة. فالإمبراطور مستثنى من تهمة الإرهاب أو الجرائم الأخرى، وكثيرًا ما يشاركه حلفاؤه نفس الامتياز. فإنهم فى أسوأ الأحوال مدانون بتهمة «الغلطات»**.

ربما يستحق چورچ شولتز بالفعل جائزة النفاق فى هذا الموضوع. فبينما كان يحث على القيام بحملة «قوية» على الإرهاب، وصف الادعاء بأن «إرهابى فريق ما هو مقاتل حرية فريق آخر» هو ادعاء «مخادع»:

مقاتلو الحرية أو الثوريون لا ينسفون الحافلات التى تحمل أشخاصًا غير مقاتلين. القتلة الإرهابيون هم من يقومون بذلك. مقاتلو الحرية لا يغتالون رجال الأعمال الأبرياء أو يقومون باختطاف الأبرياء من الرجال والنساء والأطفال. القتلة الإرهابيون هم من يقومون بذلك.. مقاتلو المقاومة فى أفغانستان لا يدمرون القرى أو يقتلون الضعفاء[1]. الكونترا فى نيكاراجوا لا تنسف حافلات المدارس أو تقوم بأعمال إعدام جماعى للمدنيين.

(١) يقصد «بن لادن» و«المجاهدين» الذين كانوا أبطالاً للحرية فى مقاومتهم الوجود السوفييتى فى أفغانستان، وكانت تساعدهم كل الحكومات العربية وأجهزتها الأمنية والإعلامية، بالمال والسلاح والتدريب والرجال، بل والدعاء من على المنابر ـ المترجم.

فى الواقع، تخصص الإرهابيون الذين يقودهم شولتز فى نيكاراجوا، مثلما يعلم، بشكل دقيق فى شن هجمات دموية على المدنيين والتعذيب والاغتصاب والتشويه، فسجلهم البغيض موثق تمامًا، ومع ذلك لم يلق له بال، وسريعًا ما طواه النسيان. وقام مقاتلو المقاومة فى أفغانستان أيضًا بتنفيذ أعمال وحشية، فقبل حديثه بعدة أشهر فقط، كان أصدقاء شولتز من اليونيتا فى أنجولا، يتباهون بأنهم أسقطوا طائرات مدنية قتل فيها ٢٦٦ شخص، وبأنهم أطلقوا سراح ٢٦ رهينة تم احتجازهم لتسعة أشهر، اشتملوا على ٢١ برتغاليًا ومرتزقة من إسبانيا وأمريكا اللاتينية، وذكرت وكالة أسوشيتدبرس بأنهم أعلنوا كذلك عن عزمهم القيام «بحملة جديدة من إرهاب المدن» مشيرة إلى حادث الانفجار فى لواندا الذى أسفر عن ٣٠ قتيلاً وإصابة أكثر من سبعين، عندما انفجرت فى المدينة سيارة من طراز چيب كانت محملة بالديناميت. كذلك قاموا باعتقال مدرسين أوروبيين وأطباء وآخرين. وذكرت الصحافة أن حوالى ١٤٠ أجنبى، منهم ١٦ فنيًا بريطانيا، قد «احتجزوا كرهائن»، وأوضح جوناس سافيمبى بأنه «لن يطلق سراحهم إلى أن تقدم رئيسة الوزراء تاتشر لمنظمته نوعًا ما من الاعتراف». واستمر هذا النوع من الأحداث على نحو مطرد، وكان من أحد أمثلته، نسف فندق فى أبريل عام ١٩٨٦م، حيث قتل ١٧ مدنيًا أجنبيًا وجُرح كثيرون. وأشادت چين كيرك پارتريك أن سافيمبى «يعد واحدًا من الأبطال الحقيقيين القلائل فى عصرنا»، وذلك فى خطابها أمام مؤتمر العمل السياسى المحافظ. فالدولة الإرهابية ينبغى عليها إبداء أحكام حاذقة. ويصلح سافيمبى لأن يكون مقاتل حرية بالنسبة لشولتز وكيرك پاتريك وقادة إرهابيين رئيسيين آخرين، حيث إنه فى المقام الأول «تعد يونيتا الجهة الأكثر ـ من الجماعات العميلة بجنوب أفريقيا ـ حصولاً على دعم واسع النطاق، والمستغلة فى زعزعة استقرار دول الجوار».

وبالنسبة إلى جيوش الكونترا التى يقودها شولتز، فإن مهمتها الرئيسية، كما أشرنا سابقًا، تتلخص فى احتجاز المجتمع المدنى لنيكاراجوا بأسرة كرهينة تحت تهديد الإرهاب السادى لإجبار الحكومة على التخلى عن أى التزام تجاه حاجات الأغلبية الفقيرة، والاتجاه إلى السياسة «المعتدلة» و«الديمقراطية» فى خدمة الحاجات السامية لمصالح الولايات المتحدة وشركائها المحليين، مثلما هو فى أكثر الدول التى تسلك

سلوكًا حسنًا تحت حماية الولايات المتحدة . غير أنه فى المناخ الثقافى الذى يزدهر فيه القادة الإرهابيون والمعتذرون، تمر تصريحات شولتز وأخرى مثلها دون أن ترمش لها عين، أو يرتفع حاجب.

يقع احتجاز الرهائن بشكل واضح تحت مسمى الإرهاب. من ثم ليس هناك شك فى أن إسرائيل كنت مدانة بعمل إرهاب دولى خطير عندما قامت بنقل ١٢٠٠ أسير، أكثرهم من الشيعة اللبنانيين، إلى إسرائيل فى انتهاك للقانون الدولى، وذلك خلال انسحابها من لبنان، وأوضحت بأنهم سوف تطلق سراحهم «بجدول غير محدد يقرره الوضع الأمنى فى جنوب لبنان» ـ أى أوضحت بأنهم سوف يبقون قيد الرهن إلى أن يُثبت السكان المحليون الذين يخضعون لحراسة من قبل القوات الإسرائيلية ومرتزقتها «سلوكًا جيدًا» داخل «الحزام الأمنى»، فى جنوب لبنان وفى المناطق المحيطة. وكما رأت مارى ماكوجرى فى حياد نادر عن الانضباط العام، فقد كان الأسرى «رهائن داخل سجون إسرائيلية»، «ليسوا بالمجرمين بل أخذوا كضمان ضد أى هجوم محتمل، وقت كان الإسرائيليون يخرجون من لبنان فى نهاية الأمر». وفى الواقع لم يكن هناك نية للخروج من جنوب لبنان حيث تحتفظ إسرائيل «بحزامها الأمنى»، كذلك كان الانسحاب الجزئى من إنجاز المقاومة اللبنانية. وفى نوفمبر ١٩٨٣م نُقل مائة وأربعون أسيرًا إلى إسرائيل سرًا فى انتهاك لاتفاقية عقدت مع الصليب الأحمر لإطلاق سراحهم فى عملية تبادل للأسرى عقب إغلاق مؤقت (حيث أعيد فتحه) لمعسكر سجن أنسار، مسرح الأعمال الوحشية، الذى وصفه كثيرًا إسرائيليون نزلوا به من قبل أو قاموا بزيارة له وأعياهم السلوك البربرى للسجانين بأنه «معسكر اعتقال». لم يسمح للصليب الأحمر كذلك بزيارة الأسرى حتى يوليو عام ١٩٨٤م. وصرح ناخمان شاى المتحدث باسم وزارة الدفاع الإسرائيلية بأن أربعمائة من السبعمائة وستة وستين الذين لا زالوا فى السجن قد قبض عليهم فى يونيو ١٩٨٥م لتورطهم فى «أنشطة إرهابية» ـ يقصد مقاومة الاحتلال العسكرى الإسرائيلى ـ بينما «أوضح السيد شاى أن باقى الأسرى قد ألقى القبض عليهم لتورطهم فى أنماط نشاط سياسى أقل عنفًا، أو تنظيم أنشطة تهدف إلى تقويض وجود الجيش الإسرائيلى فى لبنان».

وعدت إسرائيل بإطلاق سراح ٣٤٠ من الرهائن فى العاشر من يونيو، «غير أنها ألغت إطلاق السراح فى آخر دقيقة لأسباب أمنية لم يفصح عنها مطلقًا»، وبعد أربعة

أيام قام شيعة لبنانيون، ذكر بأنهم من أصدقاء وأقارب الرهائن الذين تحتجزهم إسرائيل، باختطاف طائرة تابعة لشركة تى دبليو إيه فى رحلتها رقم ٨٤٧ واحتجزوا رهائن فى محاولة لإطلاق سراح الرهائن الذين تحتجزهم إسرائيل، مما أثار نوبة جديدة من الهستيريا المنظمة جيداً داخل الولايات المتحدة، وظهور أصوات عنصرية صريحة وكثير من الإدانات الموجهة إلى وسائل الإعلام لإتاحتها الفرصة للمختطفين فى بعض المناسبات لتوضيح موقفهم، وبذلك تتداخل مع النظام المنضبط الذى يعتبر ملائماً داخل مجتمع حر.

لم يفتقر الخاطفون الإسرائيليون إلى وسيلة اتصال خاصة مع وسائل الإعلام الأمريكية، التى أسعدها تقديم الرسالة نيابة عنهم، وكثيراً ما ظهرت فى شكل «أخبار».

أدينت وسائل الإعلام بشكل عام بتهمة «مساندة الإرهاب» من خلال السماح للإرهابيين بالتعبير عن موقفهم، والإشارة ليست إلى الظهور المستمر لرونالد ريجان وچورچ شولتز وإليوت أبرامز والقادة الرئيسيين الآخرين أو المدافعين عن الإرهاب الذين قدموا رسائلهم دون أى دفع أو تعليق، مقدمين بذلك إطار المفاهيم وافتراضات للتقارير الإخبارية والتعليق.

رفضت الصحافة بسخرية تصريحات مختطفى طائرة تى دبليو إيه فى رحلتها رقم ٨٤٧، ذلك أنهم كانوا يرغبون فى ضمان إطلاق سراح الرهائن المحتجزين فى إسرائيل ـ الذين لم يكونوا رهائن فى الخطاب الأمريكى، إذ أنهم قد احتجزوا من قبل «جانبنا». وانكشفت هزلية الادعاء الشيعى بسهولة، فقد أوضحت المعلقة المتميزة فلورا لويس أنه «لا يتفق مع شخصية الشيعة المقاتلين الذين يمجدون الاستشهاد ويظهرون قليلاً من النفور فى القضاء على حياة الآخرين، أن يصبح جل اهتمامهم موعد رجوع الأسرى»، شكل آخر للمفهوم النافع، ذلك أن الطبقات الأدنى شأناً لا تشعر بالألم. زعم محررو صحيفة تايمز، دون الاستناد إلى دليل، بأن «إسرائيل قد خططت الأسبوع الماضى لتهدئة الشيعة المستائين [أى قبل عدة أيام من اختطاف طائرة تى دبليو إيه]، غير أنها توانت بسبب اختطاف عدد من الفنلنديين التابعين لقوات الأمم المتحدة فى لبنان» وفى فقرة إخبارية من تسعين كلمة، أشارت صحيفة تايمز إلى الاتهام الذى قدمته فنلندا، ذلك أن أثناء هذا الحدث الذى لا يتصل بالمسألة على الإطلاق «شاهد

ضباط إسرائيليون رجال ميليشيا لبنانيين وهم يضربون الجنود الفنلنديين المختطفين الذين كانوا يخدمون مع الأمم المتحدة فى لبنان، غير أنهم لم يفعلوا شيئًا لمساعدتهم»، بينما كان «أعضاء من جيش جنوب لبنان يضربونهم بقضبان حديدية وخراطيم مياه وبنادق». وزأرت صحيفة تايمز قائلة «هناك الكثير من الجرائم هنا»، إذ كانت تشجب مختطفى طائرة تى دبليو إيه، والسلطات اليونانية (لتراخيها) والولايات المتحدة أيضًا ـ نظرًا إلى «أنها فشلت فى معاقبة إيران لإيوائها قاتلى الأمريكيين فى حادثة اختطاف وقعت العام الماضى». غير أن احتجاز إسرائيل لرهائن ليس واحدة من تلك الجرائم.

أكد بيرنارد لويس مؤرخ الشرق الأوسط بجامعة برينستون، الذى توحى سمعته الثقافية بأكثر مما يستحق، بوضوح أن « المختطفين أو أولئك الذين أرسلوهم لا بد أنهم كانوا على علم تام بأن الإسرائيليين كانوا يخططون بالفعل لإطلاق سراح الشيعة وأسرى لبنانيين آخرين، وبأن تحديا عامًا من ذلك القبيل يمكن فقط أن يؤخر، بدلاً من أن يسارع، بإطلاق سراحهم» وبمقدورهم الاستمرار فى «تحدى أمريكا وفى إذلال الأمريكيين»، إذ إنهم يعلمون أن وسائل الإعلام المتراخية سوف «تزودهم بدعاية غير محدودة، وربما أيضًا بشكل ما من أشكال الدفاع». ويمثل ذلك صوت مثقف مبجل فى صحيفة مبجلة، حقيقة تقدم مرة أخرى رؤية ثاقبة فى الثقافة الفكرية المتسلطة. ورفض محررو صحيفة نيو ريبابليك حجة الشيعة فى إطلاق سراح الرهائن المحتجزين فى إسرائيل بوصفها «هراءً حقيقيًا»، إذ إن «اختطاف الطائرات واختطاف الرهائن والقتل والذبح هى الطرق التى ينفذ بها الشيعة والفصائل الأخرى فى لبنان عملهم السياسى»، و«الجميع يعلم» أن الأسرى الذين تحتجزهم إسرائيل كان من المقرر إطلاق سراحهم ـ حالما تصبح إسرائيل طيبة ومستعدة، إذا أصبحت. وصعَّد الرئيس ريجان من الهستيريا درجة أخرى، إذ أوضح أن «الهدف الحقيقى» للإرهابيين هو «إخراج أمريكا من العالم» فحسب. وأشار نورمان پود هوريتز إلى أن استخدام القوة ربما يؤدى إلى مقتل الرهائن الأمريكيين، وشجب ريجان لفشله فى «المخاطرة بالحياة ذاتها [أى، حياة الآخرين] فى الدفاع عن شرف الأمة». ودعى محافظ نيويورك إدوارد كوش إلى قصف لبنان وإيران، واتخذ آخرون مواقف بطولية ملائمة.

فى خلال ذلك، يستطيع القارئ اليقظ أن يكتشف داخل تقارير الأخبار الخاصة بأزمة الرهائن، أن ألفين من الشيعة اللبنانيين، بينهم ٧٠٠ طفل، قد هجروا ديارهم

نتيجة للقصف الذى تعرضوا إليه من قبل جيش جنوب لبنان الموالى لإسرائيل، الذى قصف أيضًا سيارات الچيب التابعة لقوات الأمم المتحدة لحفظ السلام، بينما «أعلن متحدث باسم الأمم المتحدة أن قوة مشتركة من القوات الإسرائيلية ورجال ميليشيا يقودهم مسيحيون، قد اجتاحت اليوم قرية تقع فى جنوب لبنان وقامت باعتقال رجال من الشيعة».

عقب اختطاف الطائرة، بدأت إسرائيل فى إطلاق سراح الرهائن طبقًا لجدولها الزمنى، وربما زادت منه نظرًا لأن عملية اختطاف طائرة الـ «تى دبليو إيه» قد ركزت انتباه العالم على عملياتها الأكثر خطورة فى اختطاف الأشخاص. عندما أطلق سراح ٣٠٠ شخص فى الثالث من يوليو، أوردت وكالة أسوشيتدپرس شهادتهم، ذلك أنهم قد واجهوا عمليات تعذيب وتجويع، بينما الشىء الوحيد الذى سمعه توماس فريدمان الذى يكتب فى صحيفة تايمز هو أن «الإسرائيليين قد عاملونا بشكل جيد..»، وكتب ريجان رسالة إلى شمعون بيريز يقول فيها «إن أزمة رهائن بيروت قد عملت على تقوية العلاقات بين دولتينا» لم يُذكر شىء بشأن «أزمة الرهائن» الأخرى التى محيت من التاريخ الرسمى.

الأعمال الإسرائيلية مؤهلة بجدارة لأن توصف بأنها احتجاز رهائن، المانع الوحيد هو أن الذى قام بها عميل الإمبراطور الذى يتحرش بالعالم. فإسرائيل مستثناة من هذا الاتهام، بيد أنه من المهم بمكان التأكيد تكرارًا على طبيعة المفاهيم الأورولية للخطاب السياسى المعاصر، الذى أُولت فيه مصطلحات مثل مصطلح «إرهاب» ومصطلح «رهينة» لاستثناء عدد من النماذج الأكثر تطرفًا، فى نيكاراجوا على سبيل المثال، أو فى جنوب لبنان حيث احتجزت مجتمعات بكاملها كرهينة لضمان الامتثال للسيد الأجنبى. بمواصلة الحديث عن الشرق الأوسط، يجب أن ندرك أن الموضوع عند مستوى معين قد استوعبه جيدًا منظمو الإرهاب الدولى. فالدافع وراء الهجوم الوحشى الذى شن على جنوب لبنان خلال السبعينيات، قد أوضحه الديپلوماسى الإسرائيلى أبا إيبان الذى يعد حمامة قيادية. **يقول أبا إيبان «لقد كانت هناك رؤية منطقية، تحققت أخيرًا، ذلك أن المجتمعات المتضررة يجب أن يضغط عليها لإنهاء الأعمال العدوانية»[1]. وبشكل أوضح، فقد احتجز مجتمع جنوب لبنان كرهينة**

(١) يبرر وينظر لمفهوم العقاب الجماعى الذى تمارسه إسرائيل على المجتمعات التى يقاوم أفرادها الاحتلال والقمع والإذلال والإرهاب الإسرائيلى ـ المترجم.

للضغط عليه كى يجبر الفلسطينيين على قبول الوضع الذى حددته لهم حكومة حزب العمل التى يمثلها إيبان، الذى صرح بأن الفلسطينيين «ليس لهم دور ليلعبوه» فى أى تسوية سلمية. وفى عام ١٩٧٨م أوضح موردخاى جور رئيس هيئة الأركان أن « لمدة ٣٠ عامًا.. قاتلنا ضد مجتمع يعيش فى قرى ومدن». وقد أشار إلى حوادث من هذا القبيل كحادثة قصفه مدينة إربد الأردنية، وحادثة الهجرة التى نتجت عن قصف عشرات الآلاف من سكان وادى الأردن، وهجرة مليون ونصف مدنى من منطقة قناة السويس، ذلك من بين الكثير من الأمثلة، التى كانت جزءًا من برنامج احتجاز المجتمعات المدنية كرهينة، فى محاولة لمنع مقاومة الحل الذى تفرضه إسرائيل بالقوة، وبدأت بعد ذلك فى التمسك بها وقتما رفضت إمكانية التوصل لتسوية سياسية. أحد نماذج ذلك، كان عرض السادات لمعاهدة سلام شاملة فى عام ١٩٧١م لحدود مصرية إسرائيلية معترف بها دوليًا. كذلك تعكس الممارسة المستمرة لإسرائيل فى «الثأر» ضد أهداف مدنية عزلاء لا علاقة لها بمصدر الأعمال الإرهابية نفسها، (وكثيرًا ما كانت ثأرًا لإرهاب إسرائيلى سابق، وهكذا دواليك، خلال الدائرة القبيحة المعتادة) نفس المفهوم، منذ مطلع الخمسينيات، عن المقولة القديمة لـ «بن جوريون»، ذلك أن «رد الفعل غير فعال» ما لم يوجه بدقة «إذا ما عرفنا الأسرة [يجب علينا] ضربها بلا رحمة، بما فى ذلك النساء والأطفال».

يعد مفهوم جور لحروب إسرائيل مفهومًا تعتقده القيادة العسكرية فيما بينها على نطاق واسع. فخلال عمليات القبضة الحديدية أوائل عام ١٩٨٥م، حذر وزير الدفاع إسحاق رابين بأنه إذا اقتضت الضرورة، فإن إسرائيل سوف تتبع «سياسة حرق الأراضى كما حدث فى وادى الأردن خلال حرب الاستنزاف مع مصر». وأردف قائلاً بأن «لبنان أصبحت تمثل مصدر إرهاب أكثر خطورة عما كانت فى عام ١٩٨٢م». حيث إن الإرهابيين الشيعة قد وضعوا أوروبا فى حالة خوف فى ذلك الوقت (لم يقم الإرهابيون الشيعة بذلك قبل الاجتياح الإسرائيلى فى عام ١٩٨٢م لأسباب غير معلومة)، لذا يجب على إسرائيل أن تحتفظ بحزام فى الجنوب حيث من خلاله «يمكننا التدخل». **وقام قائد سلاح المظلات المحنك دوبك تامارى ـ الذى أعطى الأوامر بتسوية مخيم عين الحلوة الفلسطينى بالأرض من خلال قصف جوى ومدفعى «لإنقاذ أرواح»**

القوات التى تقع تحت إمرته (ممارسة أخرى لخرافة: «طهارة السلاح») بتبرير العمل، حيث علق قائلاً بأن «دولة إسرائيل استمرت فى قتل المدنيين منذ عام ١٩٤٧م». «فقد كانت تقتل المدنيين»، «كهدف من بين الأهداف الأخرى».

ساق تامارى، كمثال لذلك، الهجوم الذى وقع على قِبْيَة عام ١٩٥٣م، عندما قتلت الفرقة ١٠١ التى يقودها آرييل شارون، حوالى سبعين قرويًا عربيًا فى منازلهم بحجة الثأر المزعوم من هجوم إرهابى لم يكن لهم به أى علاقة على الإطلاق، وزعم بن جوريون على أثير الإذاعة الإسرائيلية بأن القرويين قد قتلوا على أيدى مدنيين إسرائيليين أغضبهم إرهاب العرب «معظمهم [المدنيون الإسرائيليون] كان من اللاجئين وأشخاص من دول عربية وناجين من معسكرات الاعتقال النازية»، رافضًا «الادعاء الوهمى» بأن القوات العسكرية الإسرائيلية كانت متورطة - أكذوبة وقحة جعلت المستوطنات الإسرائيلية عرضة لتهديد الثأر لهذه المذبحة المبيتة. إن الحقيقة التى لا يعرفها الكثير من الناس هى أن قبل شهر من مذبحة قِبْيَة، أرسل موشى ديان الفرقة ١٠١ لإقصاء ٤٠٠٠ شخص من بدو القبائل عبر الحدود المصرية، وهى خطوة أخرى فى سلسلة عمليات النفى التى بدأت منذ عام ١٩٥٠م عقب وقف إطلاق النار. وفى مارس عام ١٩٥٤م، قُتل أحد عشر إسرائيليًا فى كمين حافلة نقل عام شرق النقب على أيدى أفراد من قبيلة العزازمة («إرهاب غير ناتج عن تحرش») مما تسبب فى قيام إسرائيل بغارة على قرية ناهلين الأردنية التى ليس لها علاقة نهائيًا بما حدث، حيث قتل فيها تسعة من القرويين («ثأرًا»). وفى أغسطس عام ١٩٥٣م قامت الفرقة ١٠١ التى يقودها آرييل شارون بقتل عشرين شخصًا، ثلثيهما من النساء والأطفال فى مخيم البرج للاجئين بقطاع غزة فى «ثأر» لعمليات التسلل.

يمكن تعقب دائرة «الثأر» (من قبل إسرائيل) و«الإرهاب» (من قبل الفلسطينيين) خطوة بخطوة عبر العديد من السنوات. ممارسة سوف تكشف سريعًا أن قائمة المصطلحات تنتمى إلى عالم الدعاية وليست وصفًا حقيقيًا.

قد نلاحظ هنا أيضًا كيف أن التاريخ قد أعيد صياغته على نحو فعال بشكل أكثر نفعًا. إذ كتب توماس فريدمان خلال استعراضه لاستراتيجية «محاربة إسرائيل

للإرهاب»، أن «الفترة الأولى، منذ عام ١٩٤٨م وحتى عام ١٩٥٦م، يفضل أن توصف بأنها عصر محاربة الإرهاب ـ من خلال ـ الثأر، أو بأنها عائد سلبى»، برغم أن «واحدة من عمليات الثأر هذه قد أصبحت مثاراً لجدل كبير، لما تضمنته من خسائر مدنية فى الأرواح» والإشارة حدساً تعود إلى قبية. فسجل الثقافة فى الإرهاب لا يختلف كثيراً.

إن عمليات القبضة الحديدية للجيش الإسرائيلى فى جنوب لبنان أوائل عام ١٩٨٥م قد حكمها أيضًا المنطق الذى أوضحه إيبان.

فقد احتجز المجتمع المدنى كرهينة تحت تهديد الإرهاب، لضمان قبوله بالتسويات السياسية التى تمليها إسرائيل على جنوب لبنان والأراضى المحتلة. وظلت التحذيرات قائمة، وظل المجتمع رهينة، دون أن تهتم القوة العظمى التى تمول هذه العمليات، وتحول دون التوصل إلى تسوية سياسية ذات معنى.

وكما يعفى إرهاب الجملة، بما فى ذلك احتجاز الرهائن، من الانتقاد عندما يمارسه مصدر معتمد، تُعفى العمليات الأقل درجة، كما أشرنا سابقًا. ففى شهرى نوفمبر وديسمبر عام ١٩٨٣م، على سبيل المثال، «أوضحت إسرائيل أنها لن تسمح لقوات عرفات بترك المدينة [مدينة طرابلس شمالى لبنان، حيث كانت القوات تتعرض لهجوم من قوات تدعمها سوريا] طالما أن مصير الأسرى الإسرائيليين غير محدد». لذا قامت إسرائيل بقصف ما أطلق عليه «مواقع العصابات» مما حال دون إبحار السفن اليونانية التى كان مقرراً أن تجلى الموالين لعرفات. وذكر متحدث باسم الدروز أن إحدى المستشفيات قد تعرضت لضرب خلال قصف وتدمير «ما وصف بأنه قواعد فلسطينية» شرق بيروت. بينما فى طرابلس «تلقت سفينة نقل ضربة مباشرة أدت إلى غرقها». و«اشتعلت ألسنة اللهب فى شاحنة بضائع جراء ضربة تلقتها. هنا أيضًا اتُّخذ السكان، وكذلك السفن الأجنبية، كرهينة لضمان إطلاق سراح الأسرى الإسرائيليين، الذين اعتقلوا خلال الاجتياح الإسرائيلى للبنان. ولم يظهر فى الولايات المتحدة تعليق على هذه الفظائع.

قامت إسرائيل فى البحر الأبيض المتوسط ولبنان بشن هجمات تحت حصانة من العقاب. ففى منتصف شهر يوليو عام ١٩٨٥م قامت الطائرات الحربية الإسرائيلية

بقصف وضرب المخيمات الفلسطينية التى تقع بالقرب من طرابلس، مما أسفر عن مقتل ما لا يقل عن عشرين شخصًا، كان معظمهم من المدنيين، من بينهم ستة أطفال تحت عمر الثانية عشرة. «ولعدة ساعات عقب هجوم الساعة الثانية وخمس وخمسين دقيقة ظهرًا، غمرت سحب الدخان والأتربة مخيمات الفلسطينيين فى طرابلس التى كانت مأوى لأكثر من خمسة وعشرين ألف فلسطينى»، والذى اعتبر ثأرًا لهجوم بسيارتين ملغومتين وقع قبل عدة أيام داخل «الحزام الأمنى» لإسرائيل فى جنوب لبنان من قبل جماعة متضامنة مع سوريا. بعد أسبوعين قامت الزوارق الحربية الإسرائيلية بمهاجمة سفينة نقل هندورية كانت تقف على بعد ميل واحد من صيدا، حيث كانت تنقل شحنة أسمنت طبقًا لقبطانها اليونانى، وأضرمت النيران فيها بثلاثين قذيفة مدفعية، كما جرح مدنيون جراء قصف لاحق من الشاطئ، عندما رد أفراد الميليشيا على إطلاق النار. ولم تحفل صحافة التيار السائد بتقرير أن الزوارق الحربية الإسرائيلية قد قامت فى اليوم اللاحق للهجوم بإغراق قارب صيد وتحطيم ثلاثة آخرين، بينما دعى برلمانى من صيدا الأمم المتحدة لوضع نهاية إلى «القرصنة» الإسرائيلية المدعومة أمريكيًا. **ولم تورد الصحافة شيئًا عما أطلقت عليه إسرائيل فى يناير عام ١٩٨٤م، بأنه عملية «جراحية» ضد «منشآت إرهابية» قرب بعلبك فى وادى البقاع أسفرت عن مقتل مائة شخص، كانوا على الأغلب من المدنيين، وجرح ٤٠٠ شخص، كان بينهم مائة وخمسون طفلاً فى قصف لمبنى مدرسى. واشتملت «المنشآت الإرهابية» أيضًا على مسجد وفندق ومطعم، ومحال تجارية ومبان أخرى داخل القرى اللبنانية الثلاث التى هوجمت، وكذلك مخيم للاجئين الفلسطينيين، بينما ذكرت أخبار بيروت أن سوقًا للماشية وساحة أحد المصانع قد ضربا أيضًا مع تدمير عدد كبير من المنازل. وذكر أحد مراسلى وكالة رويترز فى القرى التى طالها القصف أن جولة ثانية من عمليات القصف قد بدأت بعد عشر دقائق من القصف الأول «لتضيف المزيد إلى عدد القتلى والجرحى»، إذ بدأ الرجال والنساء فى استخراج جثث القتلى والجرحى من المبانى التى دُمرت. وقد رأى «الكثير من الأطفال» فى المستشفيات، بينما أفاد شهود عيان بأن الرجال والنساء كانوا يهرعون إلى المدارس فى بحث مذعور عن أطفالهم**. وشجب قائد شيعة لبنان «البربرية الإسرائيلية» واصفًا الهجمات على «المدنيين الأبرياء والمستشفيات ودور العبادة» بأنها

محاولة «لإرهاب الشعب اللبنانى»، غير أن الحادثة مرت دون تعليق يؤثر بشكل ما على وضع إسرائيل بوصفها «دولة تعنى بالحياة الإنسانية» (واشنطن بوست)، **من ثم يمكننا استنتاج أن ضحايا عملية القصف الجراحية هذه كانوا أدنى من أن يكونوا آدميين.**

يمكن للمرء، مرة أخرى، تخيل ما قد يكون عليه رد الفعل فى الغرب، بما فى ذلك وسائل الإعلام «المؤيدة للعرب» إذا ما كانت منظمة التحرير الفلسطينية أو سوريا قد قامتا «بضربة جراحية» ضد «المنشآت الإرهابية» قرب تل أبيب، وقامتا بقتل مائة مدنى وجرح ٤٠٠ آخرين منهم ١٥٠ طفل فى قصف لمبنى مدرسى بالإضافة إلى ضحايا مدنيين آخرين.

وبينما تبين الرواية النمطية فى الولايات المتحدة أن العنف الإسرائيلى، ربما مفرط فى بعض الأحيان، إنما هو «ثأر» للأعمال الوحشية العربية، تدعى إسرائيل، مثل الولايات المتحدة، حقوقًا أوسع كحق القيام بهجمات إرهابية لمنع الأعمال المحتملة ضدها، كما برز فى التبرير لحرب لبنان من قبل عضو الكنيست الحمائمى أمنون روبنشتين والذى سبقت الإشارة إليه، فقد قامت القوات الإسرائيلية بما أطلقت عليه «نيرانًا وقائية»، إذ بينما كانت تدفع بالدوريات فى لبنان، قامت برش الأرض بنيران المدافع الآلية مما دفع قوات حفظ السلام الأيرلندية إلى غلق الطريق فى احتجاج على ذلك. وعلى نحو معتاد، وصفت الهجمات الإسرائيلية فى لبنان بأنها هجمات «وقائية وليست عقابية»، فعلى سبيل المثال، **اجتثت من التاريخ، عملية قصف وضرب مخيمات اللاجئين الفلسطينيين والقرى المجاورة لها من قبل ثلاثين طائرة إسرائيلية فى الثانى من ديسمبر عام ١٩٧٥م، تلك العملية التى كانت على ما يبدو ثأرًا من قرار مجلس الأمن لمناقشة مقترح سلام اعترضت عليه الولايات المتحدة باستخدام حق الفيتو. وعلى نحو مماثل، وعندما قامت القوات البرمائية الإسرائيلية والقوات المحمولة جوًا بمهاجمة طرابلس شمالى لبنان فى فبراير ١٩٧٣م، أسقطت واحدًا وثلاثين قتيلاً (أغلبهم من المدنيين) وفقًا لما ذكرته السلطات اللبنانية ودمرت الفصول المدرسية والمستوصفات، بررت إسرائيل الغارة بأنها كانت «بقصد إحباط عدد من الهجمات الإرهابية المخططة ضد الإسرائيليين فيما وراء البحار».**

يسير النمط بشكل مطرد، وتقبل المبررات بوصفها مبررات مشروعة. فهى تعكس مرة أخرى وضع إسرائيل كدولة عميلة ذات نفع، وكذلك الوضع الأدنى آدمية لضحاياها.

أسقطت إسرائيل طائرة مدنية ليبية فقدت فى عاصفة رملية على مسافة دقيقتين طيران من القاهرة التى كانت متجهة إليها مما أسفر عن مقتل ١١٠ راكب[١]، وأعربت الولايات المتحدة رسميًا عن تعاطفها مع عائلات القتلى، غير أن المتحدث الصحفى «رفض مناقشة المراسلين فى مشاعر الإدارة حيال الحادثة». وجهت إسرائيل اللوم إلى الطيار الفرنسى، واتبعتها فى أداء الواجب صحيفة نيويورك تايمز، بامتثال، وذلك بقبول الادعاء الإسرائيلى بأن الطيار كان يعلم بأنه قد تلقى الأوامر بالهبوط غير أنه بدلاً من ذلك لجأ إلى عمل مراوغ «مثير للشك بشكل كبير» ـ وهو نفس التبرير الذى قدمه الاتحاد السوفييتى لإسقاط الطائرة KAL 007 ـ مما جعل العمل الإسرائيلى «فى أسوأ الأحوال.. عملاً قاسيا لا يمكن أن تبرره وحشية الأعمال العربية السابقة».

أبدت رئيسة الوزراء جولدا مائير رد الفعل الرسمى الإسرائيلى، إذ قالت بأن «حكومة إسرائيل تعرب عن عميق أسفها للخسائر فى الأرواح البشرية، ونأسف أيضًا لعدم استجابة الطيار الليبى [كذا] للإنذارات التى وجهت إليه وفقًا للعرف الدولى»، بينما أردف شمعون بيريز قائلاً بأن «إسرائيل قد عملت طبقًا للقوانين الدولية». فقد ادعت إسرائيل كذبًا بأن الطيار لم يحصل على رخصة قيادة طائرات نفاثة». ويرى أميرام كوهين فى تحليل مفصل لرد الفعل الإسرائيلى أن «الصحافة قد مُنعت من نشر صور للطائرة المنكوبة وللقتلى والجرحى، كما لم يسمح للصحفيين بزيارة المستشفى فى بئر سبع ومقابلة الناجين» كجزء من محاولة «حظر المعلومات». ورفضت الصحافة الإسرائيلية رد الفعل الدولى باعتباره إثباتًا آخر على «ازدهار روح العداء للسامية» فى أوروبا، وكذلك فى داخل الولايات المتحدة كان رد الفعل صدى لرد فعل الصحافة الإسرائيلية، إذ لم يتجرأ أحد على ذكر أو انتقاد الجريمة الإسرائيلية. ويرى كوهين أن الصحافة الإسرائيلية أصرت على أن «إسرائيل غير مسئولة»، وأن «اللوم يقع على الطيار [الفرنسى]». إنها «صحافة معبأة» ثابتة على تأييدها لعدالة

(١) مصريون وليبيون، وكان من بينهم مقدمة برامج التليفزيون الراحلة سلوى حجازى ـ المترجم.

الأعمال الإسرائيلية. وعقب الكثير من الاختلاقات، أكدت إسرائيل بوجود «خطأ فى التقدير»، ووافقت على دفع تعويضات إلى أسر الضحايا «فى مراعاة للاعتبارات الإنسانية» بينما أنكرت أى «ذنب» أو مسئولية إسرائيلية.

مرت الحادثة سريعًا داخل الولايات المتحدة مع تغاض عنها، ومع قليل من النقد لمدبرى الجريمة، وبعد أربعة أيام من الحادثة، قدمت رئيسة الوزراء جولدا مائير إلى الولايات المتحدة وأزعجتها الصحافة بعدة أسئلة محرجة، ثم رجعت إلى ديارها وبجعبتها عطايا جديدة من الطائرات الحربية. اختلف رد الفعل قليلاً عندما أسقط الروس طائرة KAL 007 فى سبتمبر عام ١٩٨٣م، غير أنه أصبح مجالاً للمقارنة عندما زعم يونيتا أصدقاء واشنطن، أنهم قد أسقطوا طائرتين مدنيتين فى وقت واحد. فليس من الصعب فهم معايير «الإرهاب الدولى».

يعود سجل الإرهاب الإسرائيلى منذ النشأة الأولى للدولة ـ وفى الحقيقة، يعود إلى ما قبل ذلك بفترة طويلة ـ ويحتوى على مذبحة مائتين وخمسين مدنيًا وترحيل وحشى لسبعين ألفًا آخرين من اللد ورملة فى يوليو عام ١٩٤٨م، ومذبحة مئات من الآخرين فى قرية الدويمة المستضعفة التى تقع بالقرب من الخليل، وذلك فى أكتوبر عام ١٩٤٨م، فى عملية أخرى من «عمليات تطهير الأرض» الكثيرة التى كانت تنفذ بينما كانت أجهزة الدعاية الدولية تصرح، ولا زالت تصرح، بأن العرب يفرون بأمر من قادتهم. وقتل عدة مئات من الفلسطينيين على أيدى قوات الدفاع الإسرائيلى بعد الاستيلاء على قطاع غزة عام ١٩٥٦م، والمذابح فى قبية وكفر قصيم وسلسلة من القرى الأخرى المنتهكة، وترحيل الآلاف من البدو من المناطق المدنية عقب حرب عام ١٩٤٨م، وترحيل آلاف آخرين من شمال شرق سيناء فى أوائل السبعينيات، وتدمير قراهم ليحل محلها الاستيطان اليهودى وهلم جرا. وتعتبر الضحايا، طبقًا للتعريف، «موالين لمنظمة التحرير الفلسطينية» ومن ثم فهم إرهابيون. وهكذا أصبح بمقدور محرر صحيفة هاآرتس المبجل جيرشوم شوكن أن يكتب أن شارون **«قد حقق لنفسه اسمًا منذ أوائل الخمسينيات كمحارب متحجر القلب فى محاربته الموالين لمنظمة التحرير الفلسطينية»**، مشيراً إلى مذبحة المدنيين التى قام بها فى غزة وقبية عام ١٩٥٣م (قبل فترة طويلة من تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية). والضحايا فى لبنان وفى أماكن

أخرى يعتبرون «إرهابيين» أيضًا، مثلما يجب أن يكون الوضع، وإلا كان من الممكن أن تتجنب قتلهم الدولة التى كرست نفسها إلى «طهارة السلاح» والتى تتمسك «بالقانون السامى» طبقًا للصحافة الأمريكية «الموالية للعرب».

حظى القادة الإرهابيون بالتكريم، فعندما تولى القائد الإرهابى الأمريكى المعاصر الرئاسة فى عام ١٩٨١م، كان كلّ من رئيس وزراء إسرائيل ووزير الخارجية الإسرائيلى قائدًا إرهابيًا سيئ السمعة، بينما كان يشغل أعلى مركز فى الوكالة اليهودية رجل قتل عشرات المدنيين كان قد احتجزهم تحت تهديد السلاح فى مسجد بمدينة لبنانية خلال عملية أخرى من عمليات تطهير الأرض عام ١٩٤٨م، وما لبث أن تم العفو عنه، ورفعت كل آثار الجريمة من السجل، ومنح إجازة لممارسة العمل فى المحاماة على أساس «لا يوجد ما يستحق أن يُلام عليه».

كذلك الإرهاب ضد الأمريكيين يمكن التغاضى عنه. فالهجمات الإرهابية الإسرائيلية ضد منشآت أمريكية (وكذلك أماكن عامة) فى مصر عام ١٩٥٤م فى محاولة لإثارة القلاقل فى العلاقات المصرية الأمريكية وإجهاض مفاوضات السلام السرية التى كانت جارية آنذاك، قد تم تجاهلها مثلما حدث فى محاولة إغراق سفينة التجسس الأمريكية ليبرتى فى المياه الدولية عام ١٩٦٧م من قبل القاذفات الإسرائيلية وزوارق الطوربيد التى أطلقت النيران أيضًا على قوارب النجاة التى لم تنزل إلى المياه، فى محاولة لضمان ألا يتمكن أحد من الهرب، ولقى أربعة وثلاثون من أفراد الطاقم حتفهم وأصيب مائة وواحد وسبعون فى أسوأ كارثة للبحرية الأمريكية لهذا القرن فى زمن السلم، إلا أنها تنحت جانبًا بوصفها «خطأ» ـ هزلية واضحة ـ ولم يُعرف عنها شىء. وعلى نحو مماثل، لم يشر فى وسائل الإعلام إلى عمليات تعذيب الأمريكيين التى قام بها الجيش الإسرائيلى فى الضفة الغربية وفى جنوب لبنان مع إلقاء الأضواء على الإنكارات الإسرائيلية وتجاهل تأكيد السفير الأمريكى فى إسرائيل على صحة الوقائع. وتخدم حقيقة أن الضحايا كانوا عربًا أمريكيين بدون شك كمبرر، وفقًا للمعايير القائمة.

إن الشىء الذى يستوقفنا فى هذا السجل، الذى يحتوى على الكثير من الإرهاب ضد اليهود أيضًا منذ فترة طويلة، هو أنه لا يلطخ بأى شكل ما سمعة إسرائيل داخل

الولايات المتحدة فيما يتعلق بالمعايير الأخلاقية التى لا يناظرها معايير فى التاريخ. فكل عمل إرهابى، إن كان أشير إليه، لا يلبث أن ينحى جانبًا أو يطوى طى النسيان، أو يوصف بأنه انحراف مؤقت، تبرره الطبيعة الشائنة للعدو الذى أجبر إسرائيل على الانحراف ـ ليت كان لمرة واحدة ـ عن سبيلها القويم.

بينما فى خلال ذلك يوجه الشجب باستمرار لوسائل الإعلام نظرًا «لازدواج معاييرها» فهى تتجاهل الجرائم العربية بينما تلصق بإسرائيل معايير بشعة.. ويطالعنا المثقفون المبجلون برصانة أن «العديد من الشخصيات العامة فى الغرب، وكذلك عددًا من الحكومات الغربية» (بالطبع، دون ذكر أسماء) قد شجعوا منظمة التحرير الفلسطينية على القضاء على إسرائيل. وعبر النطاق السياسى فى الولايات المتحدة وبين الطبقات المتعلمة ذات الانضباط الرائع ـ مع الاستثناءات التى تجاوز حتى هامش التيار الرئيسى ـ تسود العقيدة بأن إرهاب الفلسطينيين وحلفائهم العرب وتشجيع الكرملين لهم وتمسكهم المستمر بقتل اليهود والقضاء على إسرائيل، ورفضهم التفكير مطلقًا فى تسوية سياسية، كانت الأسباب الرئيسية للصراع العربى الإسرائيلى المستمر، الذى تعد إسرائيل فيه ضحية مثيرة للشفقة. أما بالنسبة إلى الولايات المتحدة، فهى تناضل بشجاعة ضد «الإرهاب» من أمريكا الوسطى إلى لبنان وما وراءها.

لم تُبدع الحركة الوطنية اليهودية والدولة التى أنشأتها فى سجل أعمالهما الإرهابية مثل الحصانة التى يتمتعان بها فى الرأى الغربى المتنور. فبالنسبة إلى الأمريكيين، يكفى تذكر «أن أدولف هتلر اختار أن يثنى على الولايات المتحدة.. فى حل مشكلة الأعراق الوطنية»، مثلما يفعل بعض أولئك الذين يعيشون اليوم فى أمريكا الوسطى وفقًا لشريعة هتلر بدعم من الولايات المتحدة. غير أن التعليق الحالى على «الإرهاب» فى «الدول المتحضرة» يفوح بالنفاق، ويمكن فحسب أن يكون موضع ازدراء بين الأناس المهذبين.

* * *